حول السعادة

•


من أجمل المفاهيم في القوانين الدولية مفهوم حق الفرد في السعي لتحقيق سعادته . والافتراض الاول هنا هو ان الامور التي من شأنها ان تكون سعادة انسان ما تختلف عن الامور التي من شأنها ان تكون سعادة انسان آخر . والافتراض الثاني هو ان المجتمع يجب ان يخلق الظروف الصحيحة التي يستطيع فيها كل مواطن ان يسعى لتحقيق ذلك النوع الخاص الذي يلائمه هو دون سواه من السعادة . واذا تأملنا مليا في هذا المفهوم وجدنا آفاقا واسعة ومضاعفات مهمة ، منها ان المجتمع يجب ان يحترم حق المواطن في ان يكون مختلفا عن غيره . ومنها ايضا ان المقياس الذي به نقيس فائدة عمل ما او صلاحيته هي مقدار ما يضفيه من رضى وسعادة على صاحبه . واذكر مرة اني سألت أما كانت تدلل طفلها امامي ماذا تريده ان يصير عندما يكبر فقالت اريده ان يكون سعيدا فقلت ولكن هذه ليست مهنة يرتزق منها الانسان فقالت سأرى ماذا يسعده ان يقوم به فأشجعه على فعله .

وسعادة الفرد في المجتمع ليست مجرد غاية انسانية مثالية بل هي ايضا ضرورة اجتماعية واقتصادية . فالرجل السعيد يستطيع ان ينتج اضعاف ما ينتجه الآخرون وهو قادر اكثر من غيره على استغلال مواهبه استغلالا وافيا لخيره وخير الجماعة التي يعيش فيها . ويتكون في المجتمع الذي ينهج هذا النهج نوع من التعامل بين افراده له خصائصه ومميزاته ويمكن أن نسميه بفن التعايش فهناك حد يصله الانسان ولا يتعداه في معاملته مع الآخرين كما ان هناك حدودا لحريته الخاصة لا يقوم الآخرون باجتيازها الا باذن خاص منه . وكثيرا ما يسيء الخارجون عن ذلك المجتمع فهم هذا التصرف والاسلوب في الحياة ويعزونه خطأ الى التجافي بين الناس او البرود في العاطفة او قلة الاهتمام بشؤون الغير .

كثيرا ما يسود العلاقات بين المعارف والاصدقاء والاقارب في مجتمعنا جو من التوتر لان العتب والزعل والمشاحنات والاحقاد تنشأ لاتفه الاسباب وكم تمنيت وانا أمر في مرحلة من هذه المراحل المضنية لو ان كل واحد منا قد احاط نفسه بسياج يحدد له منطقة من التصرف لا يجد الآخرون من حقهم ان يجتازوها الا باذن خاص فيتسنى للمرء ان ينشد سعادته بالطريقة التي يراها تناسبه ويحترم له الآخرون حقه في ذلك .

لندن

فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى »

ابعاد التجربة في شعر المدني

بقلم محمد خير الحلواني

* * *

كلما انتهيت من قراءة قصيدة لشاعر المهجر قيصر سليم الخوري – الملقب بالشاعر المدني – لاحت لي صورته الوادعة الهادئة، وتخيلته امامي بقسمات تنبىء عن طوية فذة تحببه الى النفس، وتقربه من الروح، ولست ادري لم احتفظ لهذا الرجل بتلك الميزة التي تميزه عندي من سائر شعراء الهجرة؟ اكبر الظن ان ذلك يرجع الى سر يكمن في نفسه الشاعرة، ونتاجه الذي ينقلها الينا نقلا أمينا لا اثر فيه لتناقض او زيف او محاكاة.

وما من شك في ان شعر المهاجرين كافة يمثل اضخم التجارب التي صادفت شعرنا المعاصر، ولكنهم ليسوا سواء في نقل تجاربهم، وتصوير نفوسهم، فبعضهم – وهم كثر – كانوا يخضعون الى لون من التجربة يتصف بالآنية، ولا يعبر عن فلسفة حياتية خاصة، خذ مثلا ابا ماضي، تجده مرة بجلباب شاعر بدوي قديم، وتجده اخرى يلبس حلة رومانسية حالمة، وهو ثالثة في زي شاعر انساني يحمل على الاثرة، ويدعو الى المحبة، على حين تراه في موضع آخر يكشف لك عن «نفعية» تناقض الاتجاه السابق وتغايره.

وقل مثل ذلك في كثير من شعراء الهجرة – ودع منهم ميخائيل نعيمة – لتجد هذه الملامح التي تكشف لك عن تجربة آنية ضيقة، لا تشايعها فلسفة حياة، ولا يمدها تفكير شامل يضم شتات المتناقضات والمفارقات ليربطها بخيط فكري، ويقيم منها بناء فلسفيا – مهما يكن لونه – يصبغ التجارب القريبة والبعيدة بصبغة خاصة، تعرف سماتها في تجربة امام الطبيعة، وتجربة مع المرأة، وثالثة مع الشقاء، و... وتتحدد لك الالوان كلها، على ما في نوعية هذه التجارب من اختلاف.

ولا اغلو في قيمة التعبير عن التجربة عند المدني، فأنا أعرف ان بينه وبين أبي ماضي وجبران ونعيمة، ما بين المدرسة المهجرية الجنوبية ونظيرتها الشمالية، ولكنه يتمتع بصفة ترفعه في نظر النقد، وهي ما في شعره من بروز شخصيته على تعدد الموضوعات، واختلاف التجارب.

، الظاهرة الواضحة في تجربة هذا الشاعر هي الالم الممزوج بالاعتداد والسعي...

لقد شاءت له الاقدار ان يجد ويداب ساعيا وراء الرزق والحياة، دون ان يظفر بما يكافىء سعيه من اسباب الراحة واليسار، وهو بعد لا يقل ذكاء وسدادا عن اولئك الذين عنت لهم رقاب المال، وذلت تحت اقدامهم صخور البؤس والفاقة.

من هذا المنطلق تمضي تجربة المدني، ثم تتركز حولها عناصر كثيرة دون ان تخرج عنها او تند عن خطها المرسوم، فهناك اولاده، وهم يكونون ركيزة صلبة في بناء تجربته، فمن اجلهم يتحمل وعثاء السفر، ومشقة الارتحال، ثم لا يبالي بعقبة تعترضه:

وما همني ليل وفي الدار صبية ... يرافقني منهم على البعد اقمار

وحين يؤوب من سفر يهرعون اليه، فيضمهم الى صدره فينسى اتعابه، ويسلو المكابدة والمعاناة في طلب الرزاق:

قد فرجوا عني الهموم وزحزحوا ... عن منكبي صخرا أصم ثقيلا

لولاهم كان ضعفي قوة ... والعسر يسرا، والمشيب جميلا

وكما اندرجت تجربته مع اولاده في تجربته الكبرى، كذلك يندرج شعوره الحاد بالغربة، وبسعي اخوانه المهاجرين الذي لا يثمر حياة وان اثمر مالا عند بعضهم، وما قيمة المال اذا ضاعت الانسانية من نفس حامله، وتشوهت فطرته الطبيعية فيه، يقول للمهاجر:

يخالك المغوار ... يوزع الاسلاب

فان رآك احتار ... فيما يرى وارتاب

في وجهك اصفرار ... وظهرك احديداب

فيلعن الدينار

ومن هنا كانت الوداعة الحلوة في جبال لبنان اشهى اليه من دينار البرازيل، هناك تتحقق الانسانية في الطبيعة المعطاء، وهنا تتشوه الفطرة في الطبيعة النهمة:

بعض الغنى خسران ... وحلوه كالصاب

كل الغنى أوطان ... وخيره الاياب

اليك يا لبنان

ولنترك هذه التجارب الجزئية التي تحوم في فلك هجرته وسعيه الى الرزق، ولنقصد الى تجربته مع المراة، فهي اشد لصوقا بانسانيته، واكثر تعبيرا عن خط فلسفته الحياتية..

ولكننا لا نستطيع هنا ان نفصل عن المراة تجربة اخرى وثيقة العرى بها، وهي شعوره بوطاة السن، ولعلها في هذا تأخذ بعدا نفسيا لم يكد يفلت منه انسان غزل او غير غزل. وقديما ساء زهير بن ابي سلمى ان يقول له العذارى: انما انت عمنا..

وانك لتجد هذا الشعور بالكهولة وتقدم العمر عند المدني يطغى على تجربة الحب، فنحن لا نجد عنده قطعة غزلية في ديوانه الجديد، او فيما اختاره هو واخوه القروي لينشره ويذيعه في الناس، ومع معرفتنا بأن ما حواه الديوان الاخير، «مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ١٩٦٦» ليس كل ما قاله من شعر، نجد من اللزوم ان نقصر دراستنا على ما جاء فيه، لاننا لا نعرف سواه من نتاجه الرقيق.

المراة عنده كثيرة الوعود ، قليلة الوفاء . ولكن ما شأنها معه وقد غدا عليلا نحيلا :

لم يبق منه لوعد تصدقين بـه   غير السراب لعين الظامىء الرمد
وليس للنفس فيه ما تلوذ به   كانها طائر في المهمة الحرد

اهي فكاهة ؟ نعم ، ولكنها لم تخل من روح تسري تحت حجابها الشفاف ، روح متشائمة يشعر بها الدارس لديوان هذا الشاعر ، ولا يفوته ان يجد في تلك الفكاهة ما كنا نجده في فكاهة الجاحظ والمازني من ضروب المرارة والوان الالم ، ومن هنا لم يكن غريبا ان نجد خاتمة هذه المقطوعة عن المراة ، تأتي على هذا الشكل الذي يعج بالمرارة والالم :

ضيعت رشدي لما كان لي جسد   ومذ وجدت رشادي لم أجدجسدي

واذا لا مجال للظن بأن شعر المدني لا يمثل نفسيته وحياته ، فأخوه القروي ينسب اليه الظرف والتفاؤل ، ويجد هو والقريبون منه ذلك التشاؤم الذي يظهر في شعره عجيبا ، وهم يعرفون عنه خلاف ما يقرأون له ، والحق لا مجال للاستغراب والتعجب ، فكثيرا ما يكون الاستخفاف بالحياة نتيجة للاهتمام بها ، والسخرية من المناصب نابعة من الرغبة فيها ، وربما كان لنا من المازني ، وهو قريب عهد بنا ، والجاحظ ، شيخ الكتاب العرب ، اعظم مثال نسوقه للظرف الذي يمثل قشرة تخفي تحتها اعمق الالام ، وابعد انواع التشاؤم جذورا واصولا .

ما اظن اني بعدت في التعليل ، ولا تقمصت شخصيات اصحاب نظريات التحليل من تلامذة فرويد ، فشعر المدني يدل في غير موضع منه على هذا ، فالشاعر عنيف الغضب ، مهتاج الثورة ، على ما فيه من هدوء عام ، ووداعة تحس بها في معظم قصائده ، الا انه يثور ويهتاج حين يمسه شيء ، او يطعن شخصيته امر ، يكفيه مثلا ان يتهم بشاعريته حتى يعاني الوانا شتى من تضخم الذات ، والانتفاخ والتعالي ، يقول عن شعره :

هتفت به وما ألقيت بالا   لدعوى كاذب وسفاه غمر
يريدون العلو بذم شعري   كما ركب البعوض جناح نسر
رويدا ان ذمكم حصاة   رماها من رمى في قاع بحر

الى جانب كثير من امثال هذا في الديوان .

واعتقد ان تجربة الالم والاخفاق في حياة الشاعر المدني ، هي التي ولدت عنده كثيرا من المواقف التي يطالعنا بها شعره ، فحملته على الاغنياء ، وشموخه عليهم ، واتهامهم ـ او بعضهم ـ بالغباء ، ذلك كله ثمرة تلك الحياة المخفقة التي مني بها ، وفرضت عليه .

وهناك امور كثيرة ، اراني امر بها عجلان ذا زاد غير مزود ـ كما يقول النابغة ـ لاني احس بضيق المكان الذي سينشر فيه هذا البحث ، بيد انني لا استطيع الا ان اقف قليلا عند بعض الجوانب التي تلوح في ديوان هذا الشاعر الوديع الثائر .

انه متشائم يؤثر الوحدة ، ولكنه ليس اول شاعر في حياتنا الادبية ينحو هذا النحو في نتاجه ، هناك مثلا فوزي المعلوف ، الذي فر « على بساط الريح » الى عالم ينشد فيه الراحة والدعة ، وجبران الذي لاذ بالغاب الذي تتحطم فيه الثنائيات والمفارقات ، وابو ماضي الذي هرب الى « القفر » ليتخذ فيه الليل راهبا ، وندى الفجر رحيقا ، والفضاء انجيلا ، والارض محرابا ، ولينقذ نفسه من الاوصاب التي تلحقه في المجتمعات البشرية ، وهناك كثير من شعرائنا الذين جعلوا فلسفة جان جاك روسو الطبيعية ، وقصائد ووردث وورث، منارا يهتدون به ، ومنوالا ينسجون عليه .

فما موقع وحدة المدني من هذا كله ؟

الحق ان عزلته تخلو من البعد الفلسفي الثقافي الذي نجده في عزلة الشعراء الشماليين ، والشعراء الرومانسيين ، انه اقرب الى ابي العلاء المعري ، الناس عنده منافقون ، كاذبون ، لا يستحقون المعاشرة ، ويصعب على الانسان الحر ان يقترب منهم ، او يعيش معهم .

قربي من الناس يولي شرهم أربا   وفي ابتعادي عنهم منتهى أربي
مالي سوى وحدتي خدن يرافقني   في همسه لي غنى عن أبلغ الخطب

ولهذا آثر الغاب ليعتزل الناس :

افردت نفسي في مكان ما حل   بالناس اخصب في ذراه خيالي
في غابة قد وفرت خيراتها   لذوي الخيال مخازن الاطلال

ويظل محتوى الغاب عنده فقيرا ، يفقد بعده الثقافي الذي نجده في غاب جبران ونعيمة ، وقفر ابي ماضي ، ورحلة فوزي المعلوف ، فهو مشغول بتتبع جزئيات الطبيعة المادية ، يصف حركة الطيور او حركة اولاده ، او شجرة وارفة جلس تحت ظلالها ، او سوى ذلك مما تراه العين الباصرة في عالم المادة .. فليس هناك ظلال للمدينة الفاضلة التي تصورها الفلاسفة لتحقيق المثالية الضائعة في واقع المجتمع البشري ، وليس هناك ايضا ظل لمفهوم الطبيعة عند روسو ، وهو العودة الى حياة الفطرة والبساطة ، لانتشال الانسان من زحمة المدنية ، وضياع المقومات الانسانية فيه، وغاية ما نجده في غابه انما هو اوصاف لطبيعة صامتة ، فيها الشجر الذي نعرف ، والطيور التي نألف ، والمياه التي نحب ، ثم لا فلسفة ولا ثقافة .. فعزلته عزلة شاعر « شعبي » لم ينسجم مع الناس ، فهجر الحياة معهم ، ولاذ بالبعد عنهم .

وكما نلمس عنده روح المعري المتشائمة ، نلمس كذلك عنده بعضا من خصائص المتنبي ، مع الفارق بين الرجلين ، فالمدني يهاجم الزمان كما هاجم المتنبي الدهر ، وكلاهما يقف له اول الامر ، ثم لا يلبث ان ينحني لصروفه واحداثه،ومع هذا اللقاء نجد الفارق،لقد كان المتنبي اسدا في غضبته على الدهر ، تمرد ما شاءت له قوته ان يتمرد، وثبت ما حملته عزيمته على الثبات ، ولما انحنى له لم يفقد صفة الاسدية ، بل ظل يهمهم همهمة الليث ، ويصر صريره ، اما المدني فاذا شكا جاءت شكواه هادئة مستسلمة ، واذا غضب اتسم غضبه بالحلم والبعد عن

الوشاح المتمرد

★

سرح خيالك في الحنين وغرد   قلبي على شفتيك رفة موعد
تاهت جفوني في مداك ومرغت   نفسي على قدميك جبهة سؤددي

متكبر في الضوء الا انه في   الليل من ضلعيك سندة مسند
ان شئت لف جناحه بجناحه   او شئت غرب في البعيد الابعد
مر النسيم به ففتق نسجه   ورواسبا من أمسه المتجمد
مترنح في دفء صدرك ، علقت   أهدابه بوشاحك المتمرد
خيط على كم القميص منسل   رحماك لا تشدد عليه وتعقد

★ ★ ★

سال السحاب الريح عن درب السرى   فتلفتت في رقة المتودد
ومشت الى الرمضاء لا تلوي على   زرد السحاب ولا اطار المشهد
غضبى تصارع في التململ ظلها   وتعب من لألائه المتوقد
ثم ارتمت في رهوها وحنوها   ما بين نافذة الهوى والمقعد

★ ★ ★

يا ريح كم خبات فيك حكاية   من عمري المتحجر المتشرد
شجر الخريف تناثرت اوراقه   ويقص عن املوده المتورد
آنا يبوح .. ولا يبوح .. وينثني   وكأنه حين اهتدى.. لم يهتد..

تلك.. الحياة ، فهات، هات شرابها   وأسكب لنا في دننا المتوحد
الليل عند سريرنا متمدد   ظمآن يلهث في الشجا المتلبد
ابسط يديك على الظلام لعله   ينسى من الالوان لون الاسود

الياس خليل زخريا

الصخب ، ولكنه مع ذلك لا يذل ، فهو لا يزال يتمتع بأصالة الشخصية ، ووفرة الكرامة :

ماذا أرجي أن الاقي في غد   غير الذي لاقيته فيما مضى
نبا لعيش لا ترى نفسي به   لولا خطوط الشيب شيئا ابيضا

وليس لنا ان ندع الشاعر المدني قبل ان نجمل خصائصه الفنية ، فهو اقرب الى القدماء ، في طريقة تعبيره عن تجاربه ، ولكن هذا ليس شيئا بجانب ميزة رائعة له ، هي ظهور شخصيته وتجاربه مرتبطة بخيط نفسي واحد ، يصبغه الالم ، ويغشيه التشاؤم ، ولكنه لا يفقد الاصالة ، ولا يفتقر الى مقومات الاديب .

حلب   **محمد خير الحلواني**

أصـــداء

بقلم اديـــل الخشـــن

الشويفات ـ لبنان

ماذا في نفسي !!
انشودة حزينة غاض لحنها
ضاع بين اكوام النشيج ...
وتهمس رفيقتي :
هم كالسنونو ،
يطلون مع الربيع
ويذهبون معـــه ...
وتتكىء السنابل ،
تنثر الحبـات الذهبية ،
حبة حبة .
انطلق مدافعة ،
يرمقني الغير ،
فاسبل اهدابي
اذرذر الغفران .
« يا حبيبي ...
ويحترق الليل الغافي
اغرق في النار
وتضيء اصابعي
كالشموع في ليلة العيد ،
اقرأ في افق وهاج .
ادير الشريط
واغترف من شلال منساب .
شجرة يانعة اظلتنا ،
الحانها مهدهدة
واحلامنا مواسم واعدة
هـلا ذكرت
بريق ثمارهـا
كلما لعبت الريح في الغصون !!

مر الربيـــع ،
ومر الصيف ،
أطلت اطيار السنونو وهاجرت ،
والثمار نضجت ، وطاب قطافها ،
وفي الليالي الحالكة
صحوت على ذوبان شموعي .
على احتراق صلواتي
على ضياع الشذى
المتطاير من سلال الربيع .
احلامي صمتت ،
ماتت كصدى الاجراس
والرياح جرفت خطاك ،
حملتها بعيدا
وبقيت وحدي ،
في حديقتنا الباكية ،
الخريف سطا على الاشجار
كانت شجرتنا عارية
يكبل ظلها حزن متغلغل
ويثقل اغصانها صمت موحش .
نظرت ابحث :
اوراقها متناثرة شاحبة
عروقها ناشفة ،
لا تحمل كلمة
لا ترعشها همسة .
الاغصان العارية تلاحقني ،
سياطا هاوية لاهرب ،
لاترك المكان ،
الاوراق اليابسة تخش ،
اجراسا تنذر ،
والارض تنزلق تحت قدمي
تميد كالخشبة
على صدر محيط .
وركضت بعناد
ادوس الثمار المنسية .
اسند بيدي
قلبي المتصدع تحت ضربات المطارق
امسح الدموع
واعانق الشوق الهارب
ووقفت لاهثـة
على احد البيادر
اودع اشيائي الحبيبة .
كان الضباب يغزوها بكثافة
ويلفها حزن هادىء .
وهمست باسمك
ايها الحبيب الهاجر ...
والتاعت الاغصان
تنثر اوراقها الذهبية .
ورقة ورقة .



الدكتور احمد الشرباصي

الشاعر محمد مصطفى حمام

بقلم الدكتور احمد الشرباصي

* * *

« انما المرء حديث بعده » ..

هكا قال الشاعر القديم ، ولقد كان المرحوم الشاعر « محمد مصطفى حمام » يملأ علينا دنيانا شدوا وغناء ، وطربا وبهجة ، فأصبحنا الان بعد فقدانه نحاول ان نملأ الفراغ الكبير الذي خلفه بكلمة ذكرى او نفثة وفاء .

وولد الشاعر محمد مصطفى حمام في اليوم الثامن عشر من اغسطس سنة ١٩٠٤ ببلدة فارسكور من اعمال مديرية الدقهلية حينئذ بمصر . وكانت اسرته اسرة متوسطة الحال ، تتسم بالتدين ، وتنتسب الى آل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان والده موظفا في مصلحة السكك الحديدية ، ولكنه مات وابنه فتى صغير، ثم لحقت الام بزوجها بعد قليل ، فواجه فتانا الحياة محروما من عناية الاب وحنان الام .

وتعلم « حمام » اول ما تعلم في « المكتب » ، فعرف فيه مبادىء القراءة والكتابة وقواعد الحساب ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان صاحب صوت رخيم ، يجيد به ترتيل الآيات البينات ، ثم دخل مدرسة فارسكور الابتدائية ، وحدث ان زار المدرسة حينئذ السلطان حسين كامل ، واختارت المدرسة فتانا ليلقي امام الحاكم خطبة اعدوها له ، ولكن التلميذ الجريء الطموح اغفلها والقى خطبة غيرها ، وكان موفقا فيها اسلوبا والقاء . فاستدعاه السلطان وحادثه معجبا به ، ولمح فيه بوادر ذكاء باهر ، فأهدى اليه ساعة قيمة ، وقرر ان يكون تعليم التلميذ على نفقة السلطان في جميع مراحل التعليم .

وانتقل «حمام» الى المدرسة الخديوية بالقاهرة، وكان يومئذ اصغر تلميذ يدخل المدرسة الثانوية ، ونال منها شهادة « الكفاءة » وهنا مات السلطان حسين ، وتولى الحكم الملك فؤاد ، فانقطعت نفقة التعليم عن « حمام » واستمر في المدرسة حتى نال الشهادة الثانوية « البكالوريا » ...

وكانت عند « حمام » ملكة حفظ قوية مدهشة ، فهو يحفظ الصفحات الكثيرة عقب قراءتها مرة او مرتين، وهو يحفظ القصيدة الطويلة بسرعة ، وقد طوعت له هذه الملكة ان يحفظ الكثير الضخم من الاشعار والاخبار والازجال .

وقد اشترك « حمام » في ثورة سنة ١٩١٩ حيث كان لبلده : « فارسكور » شأن مذكور في احداث هذه الثورة ، وعرف الاعتقال والسجن وهو فتى يافع دون الخامسة عشرة من عمره ، وبعد نيله شهادة «البكالوريا» انقطع عن الدراسة ، واشتغل في وظيفة بادارة التعاون في وزارة الزراعة ، حيث كتب كثيرا في مجلة « التعاون » ، ثم انتقل الى وظيفة في وزارة الشئون الاجتماعية ، ثم الى مراقبة الصحافة ، ثم الى مصلحة البريد ، ثم استقال سنة ١٩٥٢ لينتفع بقانون « تسوية المعاشات » وليشتغل صحفيا متحررا من قيود الوظيفة ، مع انه كان موظفا بلا وظيفة ، فهو في اثناء عمله في الوظائف السابقة الذكر لم يكن يرتبط بمكتب او عمل او مواعيد .

وكان يعتقد — وله بعض الحق في اعتقاده — ان مواهبه الادبية يجب ان تكون خير شفيع له بأن يضمن قوته وقوت اولاده دون خضوع لقيود الوظائف ، وكان يأسى اعمق الاسى حين لا يجد الحياة تعطيه مصداقا لهذا الاعتقاد .

ولقد عرفت الشاعر الموهوب ، وصادقته سنوات طويلة ، وكنت ادعوه كثيرا الى القاء قصائده في دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين في احاديث الاثنين ، ومحاضرات التفسير ، وندوات شعراء الاسلام، والاحفال الاخرى التي كنت انظمها في هذه الدار ، وكنت استكتبه عقب كل اجتماع ما انشده من شعر لاحتفظ به، وما زلت اذكر ندوة من ندوات الاثنين جعلت موضوعها « علمتني الحياة » ، وطلبت الى الشاعر ان يختم هذه الندوة بقصيدة في موضوعها ، وجعلت استحثه لنظم هذه القصيدة حتى فعل ، وجاء فالقى قصيدته الرائعة التي يقول في اولها :

علمتني الحياة ان حياتي ... انما كانت امتحانا ثقيلا
قد ارى بعده نعيما مقيما ... او ارى بعده عذابا وبيلا
عل خوفي من العذاب كفيل ... لي بالصفح يوم ارجو الكفيلا
عل خوفي يردني عن امور ... خبثت غاية وساءت سبيلا

والتي ختمها بقوله :

علمتني الحياة اني ان عشـ ... ـت لنفسي اعش حقيراً هزيلا
علمتني الحياة انني مهما ... اتعلم فلا ازال جهولا

واذكر ان الشاعر كان يلقي هذه القصيدة ليلة القاها بكل جوارحه ومشاعره وانفعالاته ، وما كاد ينتهي من القائها حتى انفجر باكيا ، وجلس يجفف دموعه ، ووقفت اعلق على هذا الموقف بما اسعفه به اللسان ، وكان اخي الاستاذ الشيخ محمد الغزالي مشتركا في هذه الندوة فتأثر بالموقف كثيرا ،وحرص على ان يأخذ القصيدة وينشرها في بعض كتبه ، وكان « حمام » يتلطف حينما يلقاني ويقول: لولاك ما تمت هذه القصيدة.

وكان « حمام » يعجب بالشاعر الفذ احمد شوقي ، ويشيد به وينشد له ، وكان من العادة ان انظم كل عام مهرجانا باسم « شوقي شاعر الاسلام » ، فحرص « حمام » على ان يشاركنا هذه المهرجانات شاعرا تارة ، وناثرا تارة اخرى ، ولحمام قدرة في الخطابة لا تبعد عن مقدرته في الشعر .

وفي احيان كثيرة كان يحضر الى الندوات التي انظمها بعد ان اكون قد اتفقت معه على الاستعداد بقصيدته قبل الندوة بوقت كاف ، ولكنه يحضر دون ان يعد شيئا ، ثم يطلب مني ان يجلس خلف الخطباء ، ويطلب اللفائف واقداح القهوة ، ويأخذ في النظم ، فما يأتي موعده مع الجمهور حتى تكون قد استوت له قصيدة من رائع شعره . ومن الظواهر البادية فيه انه لا يبالي بقيود المواعيد ، واذكر اني اعطيته يوما نسخة من مسرحيتي « الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز » ورجوته ان ينشىء مسرحية شعرية عن خامس الراشدين ، فوعد فأكدت الرجاء فأكد الوعد ، حتى حملته على ان يكتب « اقرارا » بتنفيذ ذلك ، واشهدت عليه بعض الادباء الحاضرين بتوقيعهم على « الاقرار » ، ومضت الايام ومات « حمام » ، وبقيت مسرحية عمر بن عبد العزيز الشعرية امرا مطويا في ضمير الغيب ..

واضطر حمام – وقد ضاقت عليه مسالك الحياة واتسعت مطالبها وتبعاتها – الى الرحيل عن وطنه الى ارض الحجاز ، واقيم حفل لوداعه في نقابة الصحفيين كنت احد خطبائه ، وتجلت فيه ايات التقدير من الادباء والشعراء لحمام ، وكأنه كان يقول في نفسه : ليت هذا التقدير الفياض استطاع ان يغنيني عن الرحيل .

سافر الشاعر الى السعودية وكانت العلاقات بينها وبين القاهرة حينئذ طيبة مستقرة ، وهناك عمل مراقبا لغويا للاذاعة السعودية ، وبذل نشاطا واسعا فيها ، واخذ يمد اولاده بما يقيمهم على طريق الحياة ، ثم ساءت العلاقات بين البلدين يوما بعد يوم ، وحمام هناك يكتب ويخطب ويذيع ، ثم اشتدت العلاقات بين البلدين سوءا بسرعة عاجلة ، وحاول الشاعر قدر طاقته ان يتخلص مما ارتبط به بعد ان تأزمت الامور ، وما كاد الباب يفتح امامه حتى سارع بالسفر الى الكويت ، حيث عمل خبيرا باذاعتها ، وواصل نشاطه فيها ، ثم رحل الى بعض امارات الخليج العربي ، ثم عاد الى الكويت، واستمر يخطب ويكتب ويذيع حتى مات ..

ان هذه الفترة من حياته سببت له ولاولاده من ورائه بعض المتاعب ، ونشرت في افقه بعض الغيوم ، مع انه كان يجاهد بقلمه ولسانه ليكفل ابناءه ، وكان يبدي وفاءه لبلاده في كل مناسبة ، ويطوي على هذا الوفاء صدرا مثخنا بالجراح ، ولقد رأيت الشاعر في السفارة المصرية بجدة وانا في رحلة الحج سنة ١٩٦١ ، وقد اقبل علينا في الثياب العربية ، فما كاد يرانا حتى فاضت دموعه ، واخذ يترجم عن حنينه لبلاده واولاده .

وكان حمام يكتب الي احيانا وهو يطوف بهذه البلاد العربية ، وكانت رسائله تترجم بوضوح عن حبه لبلاده ، وحرصه على العودة اليها ، ولكن الظروف لا تعاونه على ذلك . وكان يرسل الي مع هذه الرسائل قصائد له يريد نشرها ، ومن بين هذه القصائد قصيدته « دموع في المدينة » التي نشرتها له في رسالة « دعوة الاسلام » الصادرة في اول ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

لقد كان الشاعر الموهوب محمد مصطفى حمام اديبا شاعرا ، وخطيبا كاتبا ، وراوية حافظا ، وظريفا مداعبا ، كان يكتب الجزل القوي ، وينظم المتين الرائع ، ويخطب مرتجلاً فيأتي بالجيد من العبارة والمعنى ، ويروي من افانين المأثور ما يدل على ذوق وحسن اختيار ، وينشدك من منقوله ، فتشعر بسعة اطلاعه على تراث الاولين ، ويحادثك فاذا هو يطرفك بما يمتعك او ينفعك .

وكان حمام يكتب الخطب السياسية الطنانة لبعض كبار الزعماء ، دون ان يأخذ مقابل ذلك سوى التافه القليل من المال ، وكان هؤلاء الزعماء يلقون تلك الخطب على الالوف ، وتتردد بأصواتهم اصداء الاذاعة ، وتسجل لهم الصحف ما رددوا ، ويعجب الناس بما سمعوا او طالعوا ، والقليل من الادباء او الاصدقاء هم الذين يعلمون ان هذا صنع « حمام » . وكم كسب هؤلاء الزعماء بتلك الخطب في مجال الزعامة والسياسة .

وكان شاعرنا صاحب قدرة عجيبة على تنويع الاساليب ، فمن سهل ممتنع ، الى سجع ملتزم ، ومن اسلوب ميسور قريب ، الى اسلوب يعلو ويسمو ، وكانت له قدرة في الاغراب اللغوي وحشد المفردات المعجمية القليلة الاستعمال حينما يريد ، وكان يصنع احيانا شعرا يحشوه بذلك الغريب الذي يستمده من المعجم تارة ، ويصنعه بنفسه تارة اخرى، وقد نشر كثيرا من المقطوعات

الشعرية الغريبة ، وكان ينسبها الى صديقه الاديب اللغوي الاستاذ عبد العزيز الاسلامبولي عليه رحمة الله .

وكان شاعرنا بارعا في تقليد الفحول من الشعـراء المتقدمين والمتأخرين ، وقد قلد امير الشعراء احمـد شوقي في مقطوعات شعرية ونسبها اليه على انها مـن الشوقيات المجهولة ، وما زلت اذكر مجلسا نسب فيه « حمام » قصيدة الى « شوقي » ، وكاد الجالسـون يقتنعون بانها شوقية مجهولة ، ودخلت حينئذ ، فاستشهد بي ، واعاد انشاد القصيدة ، فقلت : انها ليست شوقيـة مجهولة ، ولكنها « حمامية جديدة » ، ولولا اني اعرف عنه من قبل تقليده شوقي ونسبته الاشعار اليـه لما استطعت ان اكشف حيلته ، فقد كان التقليد بارعا .

ولقد كتب المرحوم « حمام » في مجلات كثيرة منها التعاون ، والشباب ، والصرخة ، والرياض ، وصـوت الشرق ، والدنيا الجديدة ، والشرق العربي ، والبعكوكة وصوت العروبة ، والاستقلال ، ودنيا الفن ، ومسامرات الجيب ، والمصور وآخر ساعة وغيرها .

وكتب في صحف يومية كثيرة منها : الاهـرام ، والبلاغ ، والسياسة ، والقاهرة ، والزمان . ولو جمعنا كل ما كتبه حمام لتكون من ذلك مجلدات ومجلـدات . وخاصة اذا رددنا اليه ما نسبه الى غيره .

ولقد حرر مجلة « الرياض » حينا من الزمن ، وكان يحررها من الفها الى يائها تقريبا ، ويحشد فيها الكثير من اشعاره ، وكأنه كان يحاول بذلك تقييد هذه الاشعار حتى لا تضيع ، واصدر اخر عدد من هذه المجلة في شهر يناير سنة ١٩٥٩ .

ولم يكن للشاعر الراحل مصدر معين ثابت للكسب، بل هو يكسب بقلمه ولسانه ، وبالكتب يؤلفها لغـيره ، وبالخطب يدبجها لسواه ، كما يكسب معونة الاصدقـاء والمحبين من الوجهاء ، وكان رحمه الله غير موفق فـي سياسة المال ، فهو قد يأتيه جزافا ، ثم يذهب من يـده كما جاء جزافا ، وكان يقترض ويعجز عن الوفاء ، وكان يستدين ثم يتابعه الدائنون ، ويوضع المال في يد فـلا يبخل به على نفسه او اولاده او من يراه محتاجا مـن الناس ، والكثيرون الذين كانوا يتابعون تنقلات حمـام بين الفيشاوي ونقابة الصحفيين والاندية الاخرى بالقاهرة يعرفون الكثير من اخباره في هذا الباب .

وكان حمام يضمد للناس جراحهم على حين تنزف جراحه الدماء غزيرة ، وكان يضحك ويطرب ، وفي اعماقه احزان والام ، وكأنه صاحب البيت المشهور الذي يقول :

لا تحسبوا ان رقصي بينكم طرب   فالطير يرقص مذبوحا من الالم

لقد كان حمام يلقاك شاكيا حاله ، ثم يطرفـك بدعابة او نكتة ، ثم يسمعك شيئا من محفوظه ، ثـم ينشدك جانبا من شعره ، ثم يقلد لك الشعراء والزعماء ، ثم يسمعك غرائب المفردات اللغوية منثورة او منظومة ، ثم يرتل لك آيات من القرآن الكريم بصوت رخيم ، ثـم يغني لك أغنية عاطفية ، ثم يبكي ، ثم يهدأ ، ويعـود الى استئناف ما كان من امره .. لقد كان عجبا من العجب ، وبذلك اضاع نفسه ، ويمكن ان تقول ايضا : وبذلك صنع شخصيته المتميزة في جيله .

ولقد تجلس الى حمام وانت مكروب او حزيـن ، فاذا هو ينتزعك انتزاعا مما انت فيه الى الضحـك والبهجة ، وهو يستطيع ذلك بدعابته ، وانشاده ، وانشائه وغنائه ، وترتيله ، وتقليده ، وانتحاله ، وفنون اخرى له .

وفي يوم الاربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٦٥ لفـظ الشاعر حمام اخر انفاسه في الكويت بعد مرض بالذبحة الصدرية كان الشاعر فريسة لـه خلال ثلاثة ايام ، ثـم نقل جثمانه الى القاهـرة ودفـن بها في اليوم التالـي ، وترك من خلفه اكثر من زوجة وعشرة اولاد مـن البشر ، ولكنه ترك بجوارهم ثلاثة اولاد آخرين هم « دواوينـه الثلاثة » : (ديـوان حمام) و (من المحيط الى الخليج) و (الكويت) . وهذه الدواوين الثلاثة من حقها ان ترى النور ، وان تعرف طريقها الى النشر اللائق بنبـوغ صاحبها ومكانته الادبية ، ومن واجب المسؤولين عـن الثقافة والادب في هذا المجتمع الحاضر ان يعنـوا بنشر هذه الدواوين .

هذه لمحة خاطفة اقدم بها موكب الذكرى للشـاعر الصديق الراحل الاستاذ محمد مصطفى حمام ، وان بين يدي من معلومات عن الشاعر ، واثار له ، وفي ذهنـي من حديث عن حياته وشاعريته وشخصيته ، ما يكفـي لوضع كتاب عنه اؤدي به واجب الوفاء والانصاف للشاعر الذي قال لنا قبل ان يرحل :

ما كان من سيرتي مرا سالتكـم   نسيانه ، واذكروا بالله ما عذبا

رحم الله الشـاعر الموهوب ، والهم امته التوفيق لاداء واجبها نحو شخصيته الادبية ، ونحو اسرتـه واولاده ، ونحو شعره الكثير الرائع . والى لقاء ارجو ان يكون غير بعيد . . .

القاهرة   احمد الشرباصي

بلا حدود

تـأتي عـلى الانسان ساعات
يرى فيهـا الحياة .. بلا حـدود !
فعقاله الارضي يصبح، في الهناءة ،
فـوق مهـزلة القيـود
لكنهـا اللحظات .. وا أسفي !
اذا صدقـت .. تروح ولا تعـود

حلب   علي الناصر

العصفور

بقلم رستم كيلاني



كانت الصدمة التي واجهها أبوه في تجارته أقوى من ان يتحملها .. فمرض واشتد عليه المرض .. وطال .. وكانت هذه الصدمة بداية للون جديد من الحياة ابتدات أسرته الصغيرة تعانيه ...

وما هي الا ايام قلائل .. حتى انفق جميع ما لديه من المال .. فكان عليه ان يستدين .. فاستدان .. واثقله الدين فباع أثاث البيت..

ولاحظ ابنه .. ذلك الصبي ابن الثالثة عشر ربيعا امه وهي تعود به كل يوم بعد زيارة والده في المستشفى .. تبحث عن اي شيء تبيعه لتشتري بالثمن دواء لوالده ..

كان يحس ذلك .. فانه لم يكن شأنه كشأن الصغار في مثل سنه فقد كان شديد التأثر فيما كان يحيط به من مجريات وحوادث ..

وكان يسأل امه عن تلك الاشياء التي تباع في تلك الحوانيت .. حوانيت المرابين (الرهونات) والتي امتلأت بالكثير من أثاث البيت والملابس ...

وكانت تجيب عليه بنبرات حزن عميقة :

– عندما يشفى والدك سيعوضنا الكثير عنها .

ولكنه كان يحس بشيء آخر .. اجابة اخرى .. تخفيها عنه أمه فليست هذه الاجابة السريعة بالتي يقتنع بها ..

انه يعلم ان اباه يحتاج لمال كثير لعلاجه ..

كما انه يتذكر في يوم ما .. أرسله والده قبل وطأة المرض عليه لاحد اصدقائه بوريقة صغيرة .. وعندما اعطاها لهذا الصديق سلمه بالتالي مبلغا واوصاه بان يسرع لتوصيله خشية ان يقع منه ..

انه فعلا يتذكر ذلك .. يتذكر انه تردد اكثر من مرة على اكثر من صديق لوالده .. الى ان وقف ذات يوم بين يدي احد الاصدقاء وهو يقدم اليه الوريقة الصغيرة ..

وفوجيء ذلك الصبي بأن الرجل ردها اليه متجهما .. وارتفع صوته قائلا :

– قل لوالدك عندما يسدد ما عليه سأعطيه ما يطلبه ..

ولم ينطق الصبي .. بل وقف حائرا .. واحس حينئذ بأن هذه الكلمات صفعات انهالت على وجهه ..

وعندما عاد الى البيت وسأله والده عما فعل ..

صمت .. ثم اعطى له الوريقة قائلا :

– لقد ذهبت لعمي صالح فلم اجده .. وعلمت انه سافر الى الصعيد .

وجرى .. ولم يقل الحقيقة .. لانه يعرف ان المبلغ كان املا بالنسبة لوالده ...

ودخل غرفته .. وانكب على الوسادة يبللها بدموعه ..

ولقد حزن ذلك الصبي لمرض والده ..

والده الذي كان يقضي معه هو .. وأمه .. يوم عطلة متجره في النزهة .. في الحدائق العامة، وكان يسرف في مداعبته ..

« يا رب اشفي بابا » ..

هكذا كان دعاؤه كلما تذكر محنة والده ..

وفي غروب ذلك اليوم ..

خرج من البيت حاملا بيده الصغيرة القفص المعدني الذي يستكن بداخله عصفوره الذي اهداه له والده بمناسبة نجاحه في العام الماضي ..

وسار يضرب الارض بقدميه الصغيرتين .. هنا .. وهناك .. باحثا عمن سيشتريه .. وكيف يبيع ذلك العصفور .. العصفور الجميل الذي اصبح صديقه الحبيب .. جزء لا يتجزأ منه ..

ولكن من أجل شفاء والده يهون كل شيء .. يبيع عصفوره .. يبيع عمره .. يبيع كل شيء .. كل شيء .. وهو لا يملك سوى ذلك العصفور ..

ورن في اذنيه حديث صديق يأتي من بعيد كالاطياف ..

– الهدية لا تباع .. ولا تهدى..

ولكن من اجل شفاء والده .. يبيع كل شيء .. وكان يسرع في خطواته كانما يهرب من صوت ذلك الصديق ..

ومر بتلك الحوانيت التي اعتادت امه ان تبيع لهم اشياءها ، ولكنهم رفضوا شراء ذلك العصفور .. حتى اهتدى اخيرا .. الى محل اشتهر صاحبه ببيع كل شيء .. حتى سمي باسم محل (كل صنف) ..

وذهب اليه في تردد .. وفي خطوات ثقيلة ..

فرنا الى صاحب المحل الذي كان جالسا امام محله بضخامة جسمه يدخن النرجيلة ..

وعندما وقف امامه سأله على الفور :

– نعم .. اتريد شيئا ..

ولم يجب الصغير الا بعد فترة صمت قصيرة :

–نعم أريد .. أريد ان ابيع هذا العصفور ..

فاستطرد الرجل ضاحكا :

ـ حتى العصافير سأتاجر فيها .. ارني ذلك العصفور ..

وقدم الصبي عصفوره في تردد عنيف .. واخيرا اعطاه له وكأنه قد اعطاه جزءا من جسده ..

وعندما امسك الرجل بالقفص ظل يتفحصه في تؤدة ..

ثم استطرد قائلا :

ـ ماذا تطلب فيه من ثمن ؟

ـ لا ادري .. فلم اتعود الشراء .. أو البيع من قبل ..

ـ ثلاثون قرشا .. لا غير ..

وصمت الصبي .. وكأنه يحدث نفسه دون ان ينطق بحرف واحد..

« يا لجشاعة هـذا الرجل .. ثلاثون قرشا للعصفور وللقفص..»

وقطع صمته الرجل قائلا :

ـ خمسون قرشا .. لا غير .. ولا ازيد ..

ولم ينطق الصبي ..

فعاود التاجر حديثه :

ـ اذن خذ هـذا العصفور .. ودعني ..

فأسرع الصبي قائلا :

ـ ابدا .. ابدا انني موافق .. موافق على بيعه بهذا الثمن ..

ودس الرجل يده في جيبه .. واخرج ورقة مالية بخمسين قرشا واعطاها له ..

فشكره الصبي وانصرف ..

ولو خير .. وطاوع فؤاده لما ترك المكان .. فقد كان يسمع صوت عصفوره المتلاحق .. وكأنه يناديه .. ويرجوه ان يأخذه معه ولا يتركه ..

وشيعه الصبي بنظرات حزينة..

وكانت الدموع تلمع في عينيه الصغيرتين ..

وعندما عاد الى البيت ..

وجد أمه تجلس القرفصاء على تلك الاريكة التي توجد عند مدخل الدار ..

فحياها بتحية المساء ..

وجرى نحوها .. وقبل يدها ..

ثم اخرج من جيبه الورقة المالية .. ودسها في يدها دون ان ينطق بكلمة واحدة .. فأمسكتها بيدها المرتجفة ولم تسأله عن مصدرها ..

ولكن .. قامت من جلستها .. واتجهت الى غرفته باحثة عن شيء طرق بذهنها .. وعندما عادت اليه تسأله بنبرات حزينة :

ـ حتى ذلك العصفور !!

فصمت .. ورانت بينهما لحظات صمت مطبق تعبر عما تخالجه نفس كل منهما من تضحية في سبيل الرجل المريض ..

ثم جذبته الى صدرها .. واحتضنته في حنان .. وقد احس بدمعة ساخنة سقطت على خده ..

وفي غروب كل يوم ..

كان الصبي يسير على الرصيف المقابل لمحل (كل صنف) الذي باع عصفوره لصاحبه ..

فيراه من بعيد معلقا عند مدخل المحل .. ورغم ضجيج الشارع كان يود ان يسمع غناء عصفوره ..

ولكن بلا فائدة ..

ومرت ايام ..

انشغل فيها عن الذهاب الى رؤية عصفوره وذلك بسبب شدة مرض والده وملازمته له خلال الازمة الحادة التي انتابته ..

حتى ذلك اليوم الذي عثرت فيه يداه على بقايا طعام عصفوره المباع .. فتذكره وحمل ذلك الطعام .. وهرع الى هناك ..

وفوجيء بأن محل (كل صنف) مغلق ..

وعندما سأل احد جيرانه .. علم ان صاحبه ملازم الفراش منذ يومين ..

وانشغل ذهنه ..

وسأل نفسه مرارا ..

كيف ذلك .. والعصفور .. العصفور .. يموت بهـذا الشكل .. كيف كيف ..

وحاول أن يطمئن على حياة عصفوره ..

ولكن كيف ؟؟

وارتسمت امام عينيه آلاف من علامات الاستفهام ؟؟؟

وظل حائرا ..

ثم اهتدى اخيرا لمحاولة رمى منديله امام المحل ..

ولما رماه .. انحنى كمن يلتقطه .. وقارب اذنه الى بـاب المحل المغلق عسى ان يسمع صوت العصفور .. كان يود ان يطمئن على حياته ..

وبينما هو كذلك ..

شعر بيد قوية هبطت على كتفه كاد بسببها ان يقع على وجهه ..

كانت يد الشرطي ..

وصرخ في وجهه ..

ـ قم يا لص ..

فالتفت اليه الصبي في ذعر ورعب قائلا :

ـ لست لصا ..

وجذبه من قميصه .. وتكاثر الناس حولهما ..

وصرخ الصبي ودموعه تنهمر على خده وهو بين قبضة ذلك الشرطي.

ـ انني اعرف صاحب هـذا المحل ..

وقال الشرطي .. في سخرية..

ـ تعرفه .. صديقك .. تعال معي ..

وبينما هو يجذبه خرج من بين الواقفين صوت رجل أسمر اللون..

ـ طالما هو يعرف الحاج صاحب المحل .. فخذه (يا شاويش) الى بيت الحاج لانه مريض .. فاذا صح حديثه فاتركه .. واذا لم يكن صادقا .. فلك الحق ان تتخذ معه ما تشاء ..

ووافق الشرطي على مضض .. وأخذه معه وارشدهما طفل الى بيت صاحب المحل ..

وعندما دخلا غرفة الرجل المريض ..

تذكر الصبي رقدة أبيه ..

وعندما سأل الرجل الشرطي عما يريد ..

الطائر الغريب

★

ايها الطائر الغريب سلاما — ما حكاياك عن زهور الخزامى
اتراها بعطرها الحلو باحت — ام تراها تضم سر الندامى
يا جناح الهوى، اعرني انطلاقا — نحو من اشعل الضلوع وناما
هزني الشوق للاحبة فاحمل — للذي غاب من حنيني جاما
تعب الفكر من حديث ظنوني — وسؤالي الى متى ؟ وعلام ؟
خبر الهاجرين ان فؤادي — لم يزل يرشف الكؤوس القدامى
مترعات بذكريات غوال — ما عرفنا بروضها الالاما

اللاذقية — مها غريب

ـ آسف يا سيدي لازعاجك ..
ولكن هذا الصبي وجدته يقترب من باب المحل ليعالج فتح احد اقفاله فعندما قبضت عليه ادعى معرفتك
فسارع الطفل قائلا :
ـ يا سيدي لقد سقط منديلي على الارض بجوار المحل عفوا فهبطت لانتشاله .. الا تعرفني ..
وصمت الرجل ثم قال :
ـ والله يا بني .. لـ ..
فقاطعه الصبي قائلا :
ـ انا الذي بعت لك العصفور ..
ـ آه .. نعم .. نعم .. لقد تذكرتك ..
فأسرع الشرطي .. مخاطبا الرجل :
ـ اذن ما رايك .. في هذا الامر ..
ـ طالما عرفته .. أظن لا داعي للقبض عليه .. وشكرا لك .. وليقظتك ..
وعندما انصرف الشرطي ..

عاد الرجل يسأل الصبي عن السبب الذي دعاه للذهاب الى المحل ..
فصمت .. وكاد ان يبكي ..
وبدأ يقص عليه طرفا من قصته .. وقصة والده الملازم للفراش ..
وسر حبه لعصفوره ..
وعندما انتهى الصبي من قص روايته .. قام مستأذنا .. وقبل ان ينصرف قال :
ـ شفاك الله يا سيدي .. وقبل ان انسى هذه بقايا طعام للعصفور خذها فهي هدية بسيطة اقدمها له.
وبينما كان الصبي يمد يده لاعطاء الرجل طعام العصفور ..
استطرد الرجل قائلا وهو يعتدل في رقدته :
ـ دع طعام العصفور معك فلست في حاجة اليه ..
وبينما كانت الشغالة تضع كوبا من الماء بجوار السرير .. همس الرجل في اذنيها ..

فخرجت من الغرفة ..
وبعد لحظات ..
عادت تحمل القفص المعدني الذي يستكن بداخله العصفور (الكنارية) الصغير ..
كان العصفور يغني كأنه عرف صاحبه ..
ثم قال الرجل :
ـ خذ هذا العصفور ..
فأسرع الصبي قائلا :
ـ آسف يا سيدي .. كيف آخذه وليس معي ما استرد به ..
فابتسم الرجل قائلا :
ـ انه هدية مني اليك ..
ووقف الصبي مشدوها لا يكاد يصدق ما حدث .. وكاد وبدون وعي ينصرف ومعه عصفوره فنادى عليه صاحب البيت قائلا :
ـ تريث قليلا .. هذه هديتك انت .. اما هديتي لوالدك .. فخذ هذه ..
ودس في يده الصغيرة ورقة مالية قدرها عشرة جنيهات ..
وعجز لسان الصغير عن الشكر ..
خرج الصبي .. الى الشارع تسابقه احاسيس شتى وانفعالات متباينة وكأنه يقول في نفسه :
ـ انني اسعد انسان في العالم..
لقد كانت هناك سعادة شاملة تحتويه حقا ..
كان يطوي في احدى يديه الورقة المالية .. كأن اصابعه خزانة حديدية محكمة تحتويها ..
وتعلق في يده الاخرى القفص وبداخله عصفوره الحبيب ..
وقد ارتسمت على شفتيه بسمة فرحة .. وثمة خطان من الماء الساخن ينسابان من عينيه حتى اسفل ذقنه ..
كان فمه يضحك ..
وعيناه تبكيان ..

القاهرة — رستم كيلاني



الدكتور محمد رجب البيومي

حي بن يقظان قصة رائدة

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

لم تاخذ قصة حي بن يقظان نصيبها التام من التحليل والتوضيح ، فهي اثر فذ خالد يشير الى عبقرية نادرة ونبوغ ناضج ، ولها صلات متشعبة باكثر من ناحية من نواحي البحث العلمي ، فرجال التربية يرون فيها مثالا لما تحدثه التربية الفطرية السليمة من آثار، ويستدلون بها على اثر الطبيعة في تنمية الحواس وشحذ الادراك ، والذين يتحدثون عن نشاة الحياة على الارض يرجعون اليها في ملء الفجوات التي تتسع امامهم حين يفترضون اشياء معقولة يظنونها قد استقامت على نحو من الانحاء، ثم يضطربون في ايصال الحلقات لتسير السلسلة الكونية منتظمة كما يعقل أن تسير ، وعلماء الفلسفة يرونها الدليل على قدرة العقل وقوته ، واستطاعة الانسان المتامل ان يرتقي عن عالمه المحسوس الضيق الى العالم الاوسع الفسيح ! فيصل الى الخالق بتفكيره ، ويرى آثار الله دالة على وجوده كاشفة عن حقيقته ، اما رجال الادب فلهم ان يقولوا كلمتهم في هذا الابداع المطرد في تدفق وحيوية ، وهذا النظر المصوب الى الاعماق الدفينة تارة والصاعد الى الآفاق الرحيبة تارة أخرى نافذا ناقدا ومحللا معللا ! كل ذلك مما تتسع له هذه القصة العجيبة ، اذ تجرد للحديث عنها افذاذ جهابذة ! وهي الآن مظلومة مهضومة ، مع اثرها البعيد واتجاهها الفريد !

كنت اقرأ كتاب لحظات الالهام في تاريخ العلوم للكاتب الكبير « مريون فلورنس لانسنغ » فوجدته يتحدث في الفصول الاولى عن الانسان الاول وكيف اهتدى الى ما يصلح حياته بالتجربة والملاحظة. فاحسست اني أقرأ لابن طفيل لا لمريون فلورنس مع قرب عهده بالنسبة للفكر الاندلسي البديع ! أحسست ذلك في اكثر من صحيفة وفي اكثر من فصل بل ان عبارات ابن طفيل كانت تتراقص امام عيني، وكأنها المصدر الاول لمريون ! فهو مثلا يتحدث عن الاهتداء الى النار فيرى ان البرق كان يصيب الغابات الجافة فيضرم بها اللهيب ، وربما كان فيمن رأوا هذا المشهد رجل جريء فاخذ يحتفظ بجزء من النار ويتعهدها بالوقود كيلا تنطفيء، وكانت كل قبيلة تقيم حراسا من اشدائها يتناوبون الحراسة فيمدونها بالحطب والالياف كيلا تخمد ثم مضت مئات من السنين حتى اهتدى الانسان الى معرفة الحصول عليها دون ان يسهر على حياتها اما بسنه قطعة خشب محددة على لوحة صلبة من البلاط واما بدق حجرين من الصوان ، هذا بعض ما قاله مريون فلورنس وهو مقتبس لا محالة من هذه الفروض المحتملة التي افترضها المفكرون في حياة الانسان الاول ، فاخذوا يتخيلون ثم يكتبون ، لان حياة الانسان الاول لم تصل الينا بوجه من الوجوه في اثر من الاثار ، ويوم ان استطاع هذا الادمي العجيب ان يكتب ويترك من الاثار والعاديات ما يدل عليه لم يكن هو الانسان الاول عن يقين بل كان الانسان المتطور السائر في ركب الوجود على هدى من التجربة والملاحظة ومعاناة من التعثر والتخبط فاذا لجأ مؤرخو الانسان الاول الى الافتراض فان في طليعتهم صاحب حي بن يقظان ، وهو في ذلك بالنسبة الى مراجعه العربية مبتدىء مجدد لم يرجع الى سابق متداول كان بين قرنائه ومعاصريه .

لقد وقفت على خلاصة حديث مريون فلورنس عن اكتشاف النار ، ولك ان تسمع ما قاله ابن طفيل العالم المفكر المتخيل حين تحدث عن حي الوحيد المنفرد في الجزيرة فقال :

« واتفق في بعض الاحيان ان انقدحت نار في أجمة قلخ على سبيل المحاكاة فلما بصر بها حي رأى منظرا هاله وخلقا لم يعتده من قبل ، فوقف يتعجب منها مليا ومايزال يدنو منها شيئا فشيئا فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشيء الا اتت عليه واحالته الى نفسها فحمله العجب بها وبما ركب الله في طباعه من الجرأة والقوة على أن يمد يده فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى الى ان يأخذ قبسا لم تستول النار على جميعه فاخذ بطرفه السليم ، والنار في طرفه الاخر فتأتى له بذلك وحمله الى موضعه الذي كان يأوي اليه ، وكان قد خلا في جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك ، ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويتعهدها ليلا ونهارا استحسانا لها وتعجبا منها وكان يزيد انسه بها ليلا لانها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد انها افضل الاشياء التي لديه ، وكان يراها دائما تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو فغلب على ظنه انها من جملة الجواهر السماوية التي يشاهدها ، وكان يختبر قوتها في جميع الاشياء بان يلقيها فيها فيراها مستولية عليها ، امابسرعة او ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذي كن يلقيه للاحتراق او ضعفه ، وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية ـ كان قد ألقاه البحر الى ساحله ـ فلما انضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه فأكل منه شيئا فاستطابه فاعتاد بذلك اكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك ».

هذا التخيل المعقول لحياة الانسان في بدء الخليقة ! قد ساعد ابن طفيل على ايجاده ، بل انه رسم الطريق لكل تخيل يجري مجراه ويسير نحوه ! حتى اكتملت قصة الحياة كما تصورها الفنانون من مبدعي التاريخ البشري ، واصبح الحديث في ذلك قريبا من قول ابن طفيل او على نحو يتجه اليه سريعا ان حاد عنه قليلا ، ولصاحب حي بصر متامل حين يسير بالاشياء في طريقها المعقول فيتصور ما كان كأنه يراه حين يكون ، والقارىء لا يملك الا تصديقه بل انه يحس في اطواء نفسه حين يستمع اليه انه يصغي الى قصة يعرفها ويتخيلها ولكنه لظروف ما لم ينطق بها اذ هيأت الاقدار لها كاتبا بصيرا يتولى صياغتها الدقيقة فيحيط باقطارها الفساح ، وفي الناس من تهجس اعماقه بمثل ما هجست به اعماق ابن طفيل حين تخيل الحياة الاولى للانسان الاول فقال :

« وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنن في وجود حيله واكتسى

بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واغتذى بها ، واتخذ الخيوط من الاشعار ولحاء قصب الختمية والخبازي والقنب وكل نبات ذي خيط واستأنف جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن ليستعين ببيضها وفراخها واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبه الاسنة وركبها في القصب القوي وفي عصي الزان وغيرها ، واستعان في ذلك بالزان وحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعي ولما رأى ان يده تفي له بكل ما فاته من ذلك ، وكان لا يقاومه شيء من الحيوانات على اختلاف انواعها الا انها كانت تفرعنه فتعجزه هربا ففكر في وجه الحيلة في ذلك فلم يجد شيئا انجح له من ان يتآلف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن اليها باعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ، ومطاردة سائر الاصناف بها، وكان بتلك الجزيرة خيل برية ، وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها . حتى كمل له بها غرضه وعمل عليها من الشرك والجلود امثال الشكائم والسروج ، فتأتى له بذلك ما أمله من طرد الحيوانات التي صعبت عليه الحيلة في اخذها ، وانما تفنن في هذه الامور كلها في وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته في وقوفه على خصائص الحيوان، وبماذا تختلف ».

هذا نحو من انحاء ابن طفيل في القصة ! ملأ به ثغرات كثيرة كانت فجواتها البارزة تعترض مؤرخي الحياة البشرية ، واثره فيمن تلاه من رجال هذه المباحث اوضح من ان يشار اليه ، وما بسبيلنا ان نفصل ذلك ، ولكننا نرصد مجالات الاعجاز في قصة حي بن يقظان، وتصوير التاريخ الاول للبشرية احد هذه المجالات !!

اما المجال الثاني فدورها الهام في التربية اذ كانت الطريقة السائدة اذ ذاك في حقل التربية والتعليم شرقا وغربا ترجع الى التلقين والاستظهار ، فالطالب يملأ ذهنه بالمعارف ووظيفة الاستاذ ان يقف على مدى التحصيل لديه ، واذا شاء ان يجعل تلميذه في رأيه مثقفا مستنيرا ارهقه بحفظ القواعد العلمية والنظريات العقلية ثم أخذ ينصت اليه وهو يتلوها عن ظهر قلب ، ولكن ابن طفيل قد حارب هذه الطريقة حين يجعل حي بن يقظان يتخذ من الطبيعة استاذا يلهمه ادق الاسرار ، وحين ارهف حواسه وملكاته وشحذها شحذا قويا لتتفهم ما يحيط بها من الغاز الكائنات ! فجعل يوقظ فيه روح الملاحظة الدقيقة والادراك الفطري ، ويكثر تجاربه الشخصية ليخطيء اولا ويصيب ثانيا فيتجنب اسباب الخطأ عن يقين واستبصار، ثم يفسح له مجال التأمل البصير ليوازن بينه وبين نفسه فلا يختط طريقا لا يوصله الى نفع قريب ، وابن طفيل يعرف لا محالة ما يعرفه علماء التربية من ان الطفل يولد مزودا بقوى فطرية وغرائز لا بد من توجيهها اتجاها صالحا ولا بد من استغلالها في تنمية العقل وتكوين الخلق ، وهو متعطش دائما الى معرفة الحياة الجديدة التي تحيط به وادراك ما استتر وراء ظواهرها البارزة من خواف مدهشة، ولا بد من ارواء عطشه ونقع غليله كي يطمئن به مقامه في الحياة فيسير على أرض صلبة لا تزعزعها عواصف الشكوك ! وسبيله الى ذلك قوة الملاحظة ودوام التأمل ، وتعهد التجربة ، ترى ذلك كله في تصرف حي بن يقظان حين يبصر الاشياء لاول مرة ، ويقارن ما يراه من المخلوقات بنفسه فيرى وجوه اتفاق واختلاف فيتساءل عما يرى ويصور ابن طفيل شجونه وخواطره حين يقول عنه ص ٧٣ دار المعارف:

« وكان في ذلك كله ينظر الى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والاشعار وانواع الريش وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والانياب والحوافر ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو ، وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلايستطيع المدافعة عن نفسه ، ولا الفرار عن شيء منها وكان يرى اترابه من اولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن ، وصارت قوية بعد ضعفها في العدو، ولم ير لنفسه شيئا من ذلك كله ، فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه ، وكان ينظر الى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيها فيهم ، وكان ايضا ينظر الى مخارج الفضول من سائر الحيوانات فيراها مستورة دونه ، فلما طال همه في ذلك كله وهوقد قارب سبعة اعوام ويئس من أن يكمل له ذلك ، وما قد اضر به نقصه اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئا جعل بعضه خلفه ، وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه وعلق به تلك الاوراق ، فلم يلبث الايسيرا حتى ذوى الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ، ويخصف بعضه ببعض طاقات متضاعفة وربما كان ذلك اطول لبقائه الا انه على كل حال قصير المدة ، واتخذ من اغصان الشجر عصيا سوى أطرافها وعدل متنها ، وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوي منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نباله ورأى ان لديه فضلا كثيرا على ايديها اذ امكن له بها ستر عورته ، واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعي ».

كلام نفيس جيد نخشى ان نطيل اقتباسه فننقل اكثر ما قال ابن طفيل ، وهو يطرد في هذا المنحى اطرادا موفقا اذ يجعل الملاحظة والتجربة ديدنه ، فيصيب بهما قدراكبيرا من النجاح ! كما انه قبل كل شيء يميل بالتربية الى الطبيعة فهو استاذ روسو في ذلك! وليس معنى هذا ان الكاتب الفرنسي قد اخذ عنه رأيه التربوي! ولكنه قد سبقه بعدة قرون في تلقي اسرار التربية عن فم الطبيعة نفسها ، وقد نشأ جان جاك روسو مفتونا بمباهج الكون ومجاليه ثم بحث في اعماقه مدققا في استكناه الطبائع والغرائز والميول فرأى ان الطريقة المثلى للتربية هي مسايرة هذه الطبائع السليمة اذ تتجه دائما الى استكناه الكون ومعرفة البواعث وتعدي الظواهر الى الخفايا وقد غلا في ذلك مغالاة دفعته الى المناداة بالتربية السلبية على اساس ان يترك الاشياء للطفل يعالجها وتعالجه دون ارشاد معلم ، وهو تصور بعيد عن الحقيقة لان الطفل مهما كان قوي الملاحظة في حاجة الى من ينظم له طريق البحث ويمهد اليه اسباب النظر ويهيج فيه شعور الاستنتاج ! ولن نتخذ حي بن يقظان دليلا على صحة اتجاه روسو ، لان بطل الفيلسوف الاندلسي قد عانى من المصاعب والشدائد ما كان يهون لديه لو وجد المعلم الناصح والمربي البصير ! واذا كان قد عرف الطريق بعد مجهود شاق تصرمت به السنون والاعوام ، فما اجدرنا ان نجنب أطفالنا هذا التعثر وظروفهم غير ظروف حي دون نزاع ! ثم ان ابن يقظان من وراء ذلك كله حاد البصيرة خارق الذكاء ولن يكون جميع الاطفال من هذا الطراز ! على ان القول بالجزاء الطبيعي الذي نادى به روسو واعتنقه هربرت سبنسر ودافع عنه مدافعة صارمة ايدها بتفكيره الدقيق وميزانه المنطقي قد وجد بصورة واضحة عند ابن طفيل ، فحي كان يخطيء فيلقى جزاء الخطأ من جنسه ، يمد مثلا يده الى النار حين يراها اول مرة ليختبر جوهرها فيدركه الجزاء الصارم باللذع والاحراق ! وفي ذلك ما يؤكد ان القصة في حاجة الى دراسة تربوية تبين منهج مفكر كبير من مفكري الاسلام في التربية والتعليم ، وتوضح مدى استفادة معاصريه وتأثر من تلاهم بآرائه ثم نقارن ما تمخضت عنه الابحاث الجديدة في التربية ببعض ما اهتدى اليه ! وهو مبحث بكر يتطلب من يهتم به من الباحثين...

وقبل ان نتحدث عن مغزى القصة الفلسفي كما عناه ابن طفيل وعن اثرها القوي فيما تلاها من المؤلفات وهو ما اردناه بكتابة هذا البحث ، نوجز المقال عن اسلوبها الادبي فنرى انها من حيث كونها

قصة يصدق عليها قول الاستاذ غرسيه غومس :

« ان الخيط الذي ينتظم حلقات القصة يبدو واضحا غليظا في أولها وآخرها ويدق في الوسط حتى يكاد يخفى ، وان بداية القصة ونهايتها اشبه بقوسين ضخمين يضمان بينهما حشدا رائعا من الاراء الفلسفية » وهو حكم نميل اليه ، لان الطابع القصصي كان واضحا في البدء حين تحدث الكاتب عن الجزيرة ومجيء التابوت اليها ، ورسم المسرح بمياهه واشجاره وحيواناته ، ثم انساق بعد ذلك في ابحاثه الفلسفية عن الروح والكون وواجب الوجود والوصول الى الخالق عن طريق الاستشفاف والتأمل وافاض في ذلك افاضة العالم الاديب ، لا القصاص الفنان حتى اذا انتهى حي من مأربه العقلي اتصل بابسال وهنا نرى خيوط قصة تأخذ مجراها الوصفي وتنتهي بأدوارها واشخاصها ومسرحها انتهاء القصص الفنية ! فكأن الخيط الفني قد انقطع في الوسط وظهرواضحا في الطرفين كما يقول الاستاذ غرسيه غومس ، وان كان الاستاذ ليون جوتييه مترجم القصة الى الفرنسية لا يرى ذلك ويخالف الاستاذغومس حيث يقول في نقده « ان ذلك يوحي بضعف القصة بينما العنصر القصصي في الواقع متعادل متناسق في اجزاء القصة كلها ، وهو يختلط بالعنصر الفلسفي من اول الكتاب الى آخره وقد عرف ابن طفيل ان يستبقي من الاسطورة ما يصلح وما يسوغ ، ويطرح منها ما لا ينفع فاضفى عليها روحا جديدة ومكنها من حشد جميع آرائه وافكاره ص ١١،١٠،٩ من مقدمة الترجمة الفرنسية !

وقد عرضنا رأي الاستاذ ليون جوتييه دون ان نراه ، اذ ان مما يسرنا ان نسجل هذه الشهادات السارة لفيلسوفنا الكبير ، ولئن كان السياق القصصي غير مطرد فان الاسلوب الادبي ـ بعيدا عن موازين القصة ـ قد جاء آية في البراعة والابداع اذ احكم المؤلف تصوير المواقف احكاما رائعا ! وفي بعض عباراته نبض مؤثر حي تهتز له المشاعر كما تهتز لقصاص فنان ، فهو مثلا يتحدث عن حي حين تموت مرضعته الظبية ، وينظر فيجدها لاول عهده بالموت جثة هامدة دون ان يعرف حقيقة ما طرأ عليها ! فيأتي من الاعمال ما يدل على حيرته وارتباكه ، وهو موقف عاصف مؤثر اجاد تصويره ابن طفيل حين قال ص ٧٤ ط ـ المعارف :

« وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى ـ على الظبية المرضعة ـ الى ان ادركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع افعالها ، فلما رآها الصبي على تلك الحالة جزع جزعا شديدا ، وكادت نفسه تفيض اسفا عليها فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرا ، فكان ينظر الى أذنيها والى عينيها فلا يرى بهما آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر الى جميع اعضائها فلا يرى بشيء منها آفة ، فكان يطمع ان يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع الى ما كانت عليه ، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذي أرشده الى ذلك الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك ، لانه كان يرى انه اذا أغمض عينيه أو حجبهما بشيء لا يبصر شيئا حتى يزول ذلك العائق ، وكان كذلك يرى انه اذا ادخل اصبعيه في اذنيه وسدهما لا يسمع شيئا ، حتى يزول ذلك العارض واذا أمسك انفه بيده لا يشم من الروائح شيئا حتى يفتح أنفه ، فاعتقد من اجل ذلك ان جميع ما لها من الادراكات والافعال قد تكون لها عوائق تعوقها فاذا ازيلت تلك العوائق عادت الافعال ».

لهذا الموقف في قوته وتصويره امثال في القصة ! وحين قرأته تذكرت مشهد طفل كان ينادي أباه الميت دون ان يعلم شيئا عن حقيقته! وكنت أشاهده وقلبي يتقطع من الالم ولا أستطيع ان أفعل شيئا ؟ وجاء من ابعدوه عن الجثة وهو لا يفهم سر الابعاد ! لقد اعاد ابن طفيل لاحساسي هذا المشهد بما كتب فطفرت من عيني الدموع !

ولعلنا بعد ما تقدم عن القصة وافانينها التاريخية والتربوية والادبية نستطيع ان نستمع الى ما قيل عنها في مجال التأثر والتأثير لنصل الى رأي توضحه البراهين وتدعمه الاسانيد .

لقد ظهر ابن طفيل في القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو من جبابرة المفكرين في العصور الوسطى كما وصفه بذلك اكثر الباحثين وقد وصل الى الحجابة فالوزارة في بلاط صاحب المغرب الامير يوسف ابن عبد المؤمن ، وكان بين الامير والوزير من الصداقة ما مهد له الطريق للراحة والاطمئنان فاستطاع ان يؤدي دوره الثقافي عالما وفلكيا وطبيبا ورياضيا وفيلسوفا واديبا ، وكان من الثقة بنفسه بحيث واجه افكار الافذاذ من سابقيه ومعاصريه فناقش آراء بطليموس والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجه والغزالي ، مناقشة ذات حجج واقناع ، وكانت قصة حي بن يقظان بعض آثاره الباقية التي قال عنها الدكتور « سارطون » بحق انها من اجمل الكتب المبتكرة في موضوعها التي ظهرت في العصورالوسطى جميعها!

وكان طبيعيا ان يتجادل الكاتبون حولها ، فظهرت مجموعة من البحوث تزن افكارها وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها كما تدل على تأثيرها فيما تبعها من القصص الماثلة ! وقد تكاثر البحث في ذلك حتى كاد أن يبعد عن موضوعه ، اذ كان مجال الافتراض لدى بعض الباحثين طلقا فسيحا تعذرت معه الضوابط الفاصلة وسنناقش من هذه البحوث ما نراه جديرا بالنقاش لنصل الى الحقيقة التي نريد.

لقد كان ابن طفيل معجبا بابن سينا وقد قرأ قصته عن حي بن يقظان فأوحت اليه ان يكتب قصة حي كما يتخيلها هو لا كما ارادها الشيخ الرئيس ، فابن سينا قد جاء في قصته برفقة يتحدثون ويتناقشون، ليسوا أشخاصا من لحم ودم ولكنهم يرمزون الى اشياء معنوية تجريدية فحي بن يقظان رمز الى العقل المجرب الذي حنكته السنون وعركته الاحداث ورفقته رموز الى الشهوات والغرائز والغضبوسائر الملكات الانسانية وميدان الجدال بينهما ما يحدثعادة بين غرائز الانسان وشهواته وعقله ، والقصد منها كما يقول الاستاذ احمدامين في كتابه حي بن يقظان ص ٢١ :

« تبيين قوة العقل وتمييزها على ما لدى الانسان من غرائزوماكات وهدايتها ونجاتها اذا استمعت قوله ثم بيان علاقة هذا العقل الارضي بالعقول السماوية العليا ثم علاقتها جميعا بالعقل وهوالعلة الفاعلة أو بعبارة اخرى هو الله واجب الوجود » . قرأ ابن طفيل رسالة ابن سينا عن حي بن يقظان فأوحت اليه فكرة أخرى لا تستهدف ما عناه الشيخ الرئيس ولكنه شاء ان يبين كيف يستطيع الانسان ان يرتقي بنفسه وبتفكيره من عالم الحس الى عالم العقل بحيث يستطيع ان يصل الى معرفة الله ، وهو بذلك متأثر بفكرة المعتزلة عن العقل فهو دليل الجزاء من ثواب وعقاب ! واذا استطاع الانسان ان يصل الى الله بنفسه كما وصل حي بتأملاته فقد بلغ مشارف الكمال !

رأى ابن طفيل ان حيا تولد من غير أب وأم في احدى جزر الهند تحت خط الاستواء وتلك الجزيرة اعدل بقاع الارض واصلحها للتولد والاختصار والامتزاج وقد خاف الا يصادف هذا التوالد الطبيعي مقنعا عند بعض الناس فأجاز رأيا آخر هو ان حيا ولد لاب وأم من البشر اذ كانت أمه أخت ملك جبار وقد عقلها ومنعها من الزواج اذ لا يوجد كفوا لها من بني الانسان ، ولكنها تزوجت سرا بيقظان أحد وزرائه وحين جاءها الوضع حذرت من أخيها ، فأخذت حيا وليدها ووضعته في صندوق والقته في اليم دامعة باكية ، راجية ان تلحظه السماء بعناياتها فسار الصندوق حتى وصل الى الجزيرة ونشأ حي هناك يقول ابن طفيل في رواية ذلك ص ٦٨ ط المعارف :

« ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد ، فاحتمله من ليلته الى ساحل الجزيرة ، وكان المد يصل في ذلك الوقت الى موضع لا يصل اليه الا بعد عام فادخله الماء بقوته الى اجمة ملتفة

الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تروز عنها اذا طلعت وتميل اذا غربت ، ثم اخذ الماء في النقص ، والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل ، وبقى التابوت في ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح ، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الاجمة على التابوت ، وردمت مدخل الماء الى تلك الاجمة فكان المد لا ينتهي اليها ، وكانت مسامير التابوت قد قلقت والواحه قد اضطربت عند رمي الماء اياه في تلك الاجمة ، فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث ، وعالج الحركة فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلاها ، خرج من كناسه فحمله العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت الى التابوت ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من اعلاه ، فخفت الظبية وحنت عليه واروته لبنا سائغا وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الاذى » .

هذه السطور المحدودة التي جاءت بين صفحات القصة الطويلة كانت مدعاة لتقول كثير ، فقد قرأ الاستاذ غرسيه غومس بضعة اسطر في خرافة تروى عن الاسكندر ذي القرنين ، فرأى بين الخرافة ، وهذه الاسطر من قصة حي ما يدل على ان ابن طفيل قد استغل اسطورة ذي القرنين وبنى عليها قصته ، ثم جاء بلتاز جراسان بعد ابن طفيل بعدة قرون فنقل عنه فكرته التي رسمها بوضوح وكان الاحتذاء سافرا واضحا ينادي على نفسه ! ولكن الاستاذ غرسيه وبعض من شايعه من المستشرقين لا يميلون الى الجزم بذلك بل يرون اسطورة الاسكندر اساس القصتين وانها كانت مصدر ابن طفيل وجراسان معا ! والامر اوضح من ان يختلف عليه اختلاف الشكل الغامض من الاراء ! وسنبسطه بسطا سافرا يلمسه القارىء بالنظر السريع بعد ان تبدد ما حاكوه حول قصة حي من شبهات واهية لا ترتكز على اساس متين.

لقد جعل ابن طفيل بطل قصته ـ اولا ـ طفلا يرمى في تابوت ينقله البحر الى جزيرة نائية ثم جعل مرضعته ـ ثانيا ـ ظبية رقيقة تعطف عليه وتختاره بديلا من طلاها الفقيد ، ثم مضى به ـ ثالثا ـ حتى بلغ أتم مرحلة من النضوج الفكري تولى فيها تعليم نفسه بنفسه عن طريق التامل والاستبصار حتى وصل الى فكرة الانسان المتوحد ـ بوحي من تفكيره الدقيق ، فما في هذه الثلاثة من الغريب على ابن طفيل حتى يستند الى اسطورة وثنية لا تصلح لالهام عبقري بديع .

اما انه قد رمى بالطفل الى البحر مع التابوت خوفا من ملك جبار ! فجائز جدا ان تكون قصة موسى عليه السلام كما حكاها القرآن الكريم قد هدته الى ذلك الانقاذ الغريب ، وابن طفيل الفيلسوف المسلم قد قرأ القرآن وادرك اسراره ولان يتاثر به اقرب الى العقل من ان يتاثر بخرافة وثنية لم يثبت وجودها لعهده على وجه قاطع صريح ! فلو تاثر خيال ابن طفيل في هذا الموضع بشيء لتاثر بقول الله ، ولا يقدح في ابتكاره ان يهتدي بنص كريم .

هذا عن الشبهة الاولى .. اما الشبهة الثانية التي لمحها الاستاذ غومس في ارضاع الظبية لحي حتى استوى ومرن ! فليست اسطورة الاسكندر صاحبة التفكير في ذلك ، اذ ان اساطير العرب القديمة تذكر نحوا قريبا منه حين تجعل بعض الحيوانات تعطف على الصغار فترضعها الاثداء .. وكتاب الحيوان للجاحظ ذائع مشتهر ، ولا بد ان عالما طبيبا يهتم بالتشريح كابن طفيل قد قرأه ودرس طبائع الحيوان وخصائصه كما صورها الجاحظ .. وفي بعض قصص الجاحظ وطرائفه ما يدل على رضاعة الاطفال من الحيوان ! فقد قال ما نصه :

« وزعم علماء البصريين ان طاعونا جارفا جاء على اهل دار فلم يشك اهل تلك المحلة انه لم يبق فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجليه فعمد من بقي من المطعونين من اهل تلك المحلة الى باب تلك الدار فسده ، فلما كان بعد ذلك باشهر تحول فيها ورثة القوم ففتح الباب ، فلما افضى الى عرصة الدار اذا هو بصبي يلعب مع اجراء كلبته ، وقد كانت لاهل الدار ، فراعه ذلك فلم يلبث ان اقبلت كلبة كانت لاهل الدار فلما رآها الصبي حبا اليها فامكنته من اطبائها فمصها ، فظنوا ان الصبي لما بقي في الدار وصار منسيا واشتد جوعه ورأى اجراءها تستقي من اطبائها حبا اليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت ذلك له وادام هو الطلب . فسبحان من دبر هذا والهمه وسواه ودل عليه » .

وبديهي اني لا اذكر هذه القصة لاجزم بوقوعها فقول الجاحظ وزعم علماء البصريين مما يضعف تحققها ، ولكني اقول انها كانت معروفة لابن طفيل فيما قرأ من كتب الجاحظ فاذا جعل حيا في قصته يفيء الى ظبية ترضعه وترئمه فذلك مما اوحته اليه امثال هذه الاقاصيص ! وخياله الرائع جدير ان يتفتق تلقائيا عن اتجاه معقول يرتضيه ! على ان اختيار الظبية بالذات ذو مدلول ذوقي وعلمي لايبعد عن ذهن راق كذهن ابن طفيل .. وما تعمدنا الاستشهاد بقصة الجاحظ الا لنبطل رأي من يقول باستلهام خرافة غريبة لم تكن ذائعة في عصر الموحدين !! اما وصول حي بنفسه الى ما هدت اليه التعاليم السماوية من قدرة الخالق الاعظم وابداعه فهو الهدف الاساسي الذي قام في نفس الفيلسوف قبل ان ينشىء القصة وعلى اساسه اختار البطل وهيأ المسرح وكتب تاريخ الحياة أفيكون قد استوحاه ايضا من اسطورة الاسكندر وهي لا تشير الى مغزى فلسفي على الاطلاق !! ربما كان القول بتأثير ابن باجه في نفس ابن طفيل بفكرة الانسان المتوحد مما يلتفت اليه في تكوين بنائه الفلسفي ! ولكن القول بتاثير اسطورة الاسكندر وهم متآكل لا يثبت الى تحقيق !!

لقد طال الحديث عن هذه الاسطورة وكأني بالقارىء قد اشتاق الى الوقوف على مضمونها ليلمس بيديه مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير ! وهي تقص علينا ان الاسكندر وصل في فتوحاته المظفرة الى جزيرة تسمى ارين فرأى بها تمثالا ضخما كتب عليه سطور كثيرة فسأل عن ترجمتها فعرف ان صاحب هذا التمثال كان ابنا لبنت ملك فالقت به في البحر لسبب ما فرحل به التيار الى جزيرة بعيدة لا يسكنها انسان فربته ظبية عطفت عليه فنما بالجزيرة وترعرع واخذ يتفكر ويتأمل دون ان يصل الى شيء !! حتى وصل الى الجزيرة ابوه باحثا عنه ، فتعارفا واصطحبا دون ان يعرف احدهما الآخر ثم تركا مكانهما الى الجزيرة المعمورة . وهذا بعينه قريب مما حكاه ابن طفيل ولكن مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير يكمن في ناحية هامة لا يجوز اغفالها هي هذه الاسطورة لم تعرف الا في مخطوط كتب بحروف لاتينية ارغونية يرجع الى القرن السادس عشر (حي بن يقظان ط ـ دار المعارف ص ١٢) ومعروف ان ابن طفيل قد كتب قصته في القرن الثاني عشر الميلادي فكل ما يجيء بعد ذلك من الاساطير المشابهة لا بد ان يكون مستلهما من قصة حي بن يقظان ! ولا يمكن ان يكون العكس صحيحا ! لا بدليل يقيني تطمئن اليه النفس ! وهذا ما لم يات به القائلون بتأثير هذه الاسطورة الى الآن ! وادعاء قدم الاساطير الشعبية مما يستأنس به عند قيام ادلة متضافرة ولكنه لا ينهض وحده دليلا يجابه ادلة منطقية ذات زمان وتاريخ . على ان هذه الاسطورة جعلت في رأي بعض النقاد اصلا لقصة الفها الكاتب الاسباني بلناسار جراتيان ١٦٠١ ـ ١٦٥٨ .

وهي في ثلاثة اجزاء يتشابه الجزء الاول منها تشابها قريبا بقصة حي اذ ان بطل القصة ينجو من الغرق فتدفعه الامواج الى جزيرة نائية فيصادف فتى مثل حي بن يقظان كان يحيا في الجزيرة على نحو مماثل لحياته لا يعرف خالقه ولا يفهم عن الحياة شيئا فيصادقه ويفهمه طريقة الكلام كما فعل أبسال بحي تماما !! ثم يتوجهان معا الى اسبانيا ويبدأ صاحبه بتحذيره من الناس ويدعوه الى التعقل والتصون فيستجيب الى غرائزه مخالفا اياه ثم ينزلق في علاقة اثيمة مع بعض الساقطات ، فيحاول ان ينقذه ثانية بارشاده

قبل يومين

قبل يومين انتهينا
ونفضنا
من جنى الرغبة والحب يدينا
قدر كان علينا
أن نعانيه ونشقى
يرحل الصيف ونبقى
والشتـــاء
ثلجه في رئتينا
طرق الباب ولم يبق لدينا
لليالي الطويلات متاع
غير سهد وبكاء
وضياع

قبل يومين انتهينا
مثلما كنا صباحا ومساء
ومضينا
نتلهى بالحصى نقذف منه ما نشاء
فوق مجرى النهر ، في بركة ماء
وانتزعنا من فمينـــا
كلمـــات
كن كذبا وهراء
وحملنا ذلك الكذب على
عاتقينـــا
ووضعنا بيننا سيف جفاء
ثم قاتلنا طواحين هـــواء
بيـــدينا

قبل يومين انتهينـــا
التقينـــا
وافترقنـــا
ضينـــا
قدر كـــان علينـــا
ان نعانيه ســـواء
ان نعانيه معا دون بكاء

بغداد — صفاء الحيدري

وتوجيهه ولكنه يخفق ... وتمضي القصة على هـــذا النحو متأثرة بقصة حي تأثرا لاشية فيه ولكن الاستاذ غرسيه ،غومس لا يقطع بـــه ويظن اسطورة الاسكندر مصدر ابن طفيل وجراثيان معا ، وقد وافقـــه على ذلك بعض الكاتبين من المستشرقين ولكن الدكتور البحاثة محمـــد غنيمي هلال يبسط جوهر الخلاف في كتاب « الادب المقارن » ثم يرى ان تأثر جراثيان بابن طفيل لا بالاسطورة واضح ويعلـــل ذلـــك ص ٢٤١ ط ثالثة ، « بأن شبه قصة جراثيان بلنارسار بقصة حي لا ينحصـــر في القالب القصصي العام ولكن يبدو كذلك واضحا في الطابع الرمزي فهذه الميزة هي جوهر قصة ابن طفيل وليس في قصة الصنم المعبـــود شيء منها على انه ليس لدينا دليل قاطع على سبق اسطورة الاسكندر لقصة ابن طفيل تاريخيا » .

ثم تحدث الدكتور محمد غنيمي هلال عن تأثير قصة حـــي فـــي اوروبا واثرها البارز في الاتجاه الى قيم جديدة ، وافكار هامة فيقول ص ٢٤١ ايضا .

« وحين عرفت قصة حين بن يقظان في أوروبا لقيت حظا رائعـــا لدى فلاسفتها وخصوصا في القرن الثامن عشر ثـــم التاسع عشر ، ذلك ان القرن الثامن عشر الاوروبي كان يعتقد مقدرة الانسان الفطري على الاهتداء للفضائل ، والى الاسس السامية التي تفضل الشرائـــع الانسانية ، وقد راجت هذه الدعوة نفسها لدى الرومانتيكيين فـــي القرن التاسع عشر ، ورأى هؤلاء وأولئك في قصة حي بن يقظان مـــا يشد أزر دعوتهم ، اذ اهتدى حي فيها الى مـــا يتجاوز الشريعة ، ومن الواضح ان رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند لـــه من حقيقة القصة نفسها ، ولكنه كان جوهر دعوتهم واذن فقد كـــان تأثير قصة ابن طفيل في الآداب الاوربية تأثيرا كبيرا متنوع الدلالة».

هذا كلام الدكتور محمد غنيمي هلال وقد وقفت كثيرا عند قوله ومن الواضح ان رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولو كان الامر كما يقول لما تمسك بهـــا هؤلاء دليلا على ما يهدفون اليه ! واذا كانت دعوتهم ـ باعتراف الدكتـــور الفاضل ـ تذهب الى الاعتقاد في مقدرة الانسان الفطري على الاهتداء الى الفضائل والى الاسس السامية التي تفضل الشرائع الانسانية !! اذا كانت دعوتهم كذلك فان حي بن يقظان كما عرضه ابن طفيل تطبيق صريح لهذه الدعوة ومثال قوي الدلالة على امكانها حيث اهتدى الـــى الفضائل الانسانية بتفكيره التأملي واحساسه الفطري ثم ارتقى الى ما فوقها في عالم الغيب ؟ واهتداؤه الى هذه الفضائل وحدها هـــو المقصود عند هؤلاء وهو واضح لا شبهة فيه !!

الفيوم ـ دار المعلمات — محمد رجب البيومي

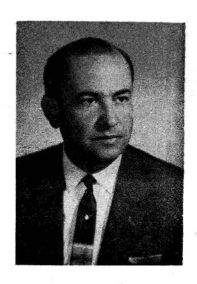
الى طفل الامس

•

فـــؤاد الخشـــن

•

الشويفـات ـ لبنان



عائشا كنت هنيء النفس في تلك الجزيره
في قصور الوهم ، في حلم الفراديس الصغيره
تنشد الاشعار تهدي القلب قربانا الى احلى اميره
لا ترى اكداس اكواخ الملايين الحقيره
ونزيف القش والفزار سلا واختناقا
فملت الصحو ، طلقت طريقه
خلف قطعان انسياق وقبول
ورفضت العمر موتا وانسحاقا
تحت دورات الدواليب العتيقه
حينما نادتك اضواء المنارات البعيده
في شطوط ابرزتها من بحار الليل رؤياك الجديده
ورأت عيناك عبر الشفق
الف أفق خلف هذا الافق
تفتح الاضلاع ابوابا لارض المستحيل
وذرى تهفو الى صخرة سيزيف العنيده !

لـم تعـد انت لنفسك
لانفعالاتك في الحب ، وفي نزوات حسك
صرت ملك الآخرين
يا فؤادا همه النامي من الاعماق هم المرسلين
عد الى ارض الغداة الكادحين
وتناس المثل العليا وغيمات عيون
عشش التمويه في انسانها ، غام الرياء
وامتشق للحق سيف الكلمه
نارها المشبوبة المضطرمه
واغترف شعرك من صحو نفوس البسطاء
من غد العائد للكوخ ، على لحن الرجاء !

دعك من سفحك ، من ترنيم هذي الساقيه
ومن الطحلب من طيب الورود الزاهيه
عفن الظل على جبهتك ابيض ، وانفاس الرطوبه
جعدتها وذرا اليأس شحوبه

ماردا صرت ، ملت القمقما
والظلام المستثير المبهما
صرت نسرا يجرح الغيم ويدمي القمما
كل ما بالامس اغواك ، تصبى ناظريك
صار طينا ، وغبارا عالقا في قدميك !

التضمين وانواعه في الشعر الحديث

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

التضمين مصطلح بلاغي ، نقدي ، قديم ، ومتوارث ، يشيع اليوم في لغة النقد الادبي ، لحد صورة من صور البلاغة ، والاسلوب ، هي : ذكر شيء من كلام الغير او الاشارة الى حادثة (١) .. وقد كان البلاغيون العرب القدامى يسمون هذه الاشارة الى حادثة ، او ايضا قصة ، تلميحا ، وهو نوع من التضمين (٢) . .

واليوم يعود التضمين بأنواعه الى الظهور ، وتعود له، ولانواعه القيمة الفنية الادبية ، مع شيوع الاتجاه التلقيني، الايحائي ، للوقائع الحياتية ، أو الاسطورية ، في الشعر الحديث ، وخاصة الشعر الحر فيه ، فيصطنع الشعراء المحدثون التضمين بأنواعه ، الاستعانة ، والايداع ، والحل ، والعقدة والتلميح .. ولكن في سياق من السرد او الاستطراد ، او التلقين ، يتساوق مع تجربة الشعر الحديث بمجموعها ..

الا أن الشائع اليوم ، في الاستعمال الادبي ، والنقدي ، اطلاق التضمين في عمومية المصطلح على انواعه المختلفة ، من استعانة ، او ايداع ، او حل ، او عقد ، او تلميح ، اذ يطلق كثير من النقاد على هذه الانواع المختلفة تضمينا .. وذلك جائز في المصطلح ، وقلة من النقاد ، والدارسين اليوم تدقق في المصطلح ، او تميز بينها (٣) ، والتمييز بينها احسن ، واقوم ..

ولذلك كله ، رغم ان الحد البلاغي للتضمين اليوم وقديما مكتف ، كمصطلح ، الا ان الدقة في اظهار فنية التعبير الادبي ، والشعري الحديث تتطلب منا اليوم التدقيق في جزئيات الصور البلاغية ، والاسلوبية ، واصطناع المصطلح الدقيق لها ، اعتمادا على المصطلح القديم نفسه ، وهو ما نفعله في هذه الدراسات البلاغية ، النقدية التوضيحية ، والتحليلية ، على الشعر الحديث .

١ ــ من ابرز الامثلة الحديثة على التضمين الذي يسمى استعانة ، اي ذكر كلام الغير بنصه ، او ببعض نصه ، قول الشاعرة فدوى طوقان في قصيدة : «الفدائي والارض » ..

اجلس كي اكتب ، ماذا اكتب ، ما جدوى القول ،
يا بلدي .. يا اهلي .. يا شعبي ..
ما احقر ان يجلس انسان كي يكتب في هذا اليوم ،
هل احمي اهلي بالكلمة ؟!
هل انقذ بلدي بالكلمة ؟!
ــل الكلمات اليوم ؟
ملح لا يورق ، او يزهر ،
في هذا الليل ..

الاستعانة هنا بكلام الغير ، صارت الى عقد النثر ، اي نظم كلام منطوق مأثور ، بنصه ، أو ببعض نصه ، ولذلك تسمى العقد ، اي النظم لهذا النثر (٤) ، وبالفعل التضمين هنا يتعلق بالكلمات المتوترة التي وجدت في مفكرة الفدائي الفلسطيني : مازن جودت ابو غزالة ، وكان كتبها في ١٥ حزيران ١٩٦٧ ، ومنها : «.. اجلس لكي اكتب .. ماذا اكتب ؟ ولمن ؟ يا بلدي .. يا اهلي .. يا شعبي .. يا حياة .. يا انسان .. يا رب .. ماذا اكتب . ما احقر ان اجلس واكتب .. ما احقر ان يجلس اي انسان في هذا اليوم ليكتب ... » الى ان يقول : « زغرد يا رصاص ، واخرس يا قلم .. » وكتب الجملة الاخيرة بخط عريض .

وقد اصطنعت الشاعرة فدوى طوقان ذلك في قصيدتها ، فضمنت كلام الفدائي ، ثم استنطقت حاله الثورية ، والوجدانية ، وعلى الخصوص في حوار متخيل بينه وبين امه ، الى ان تضمن انخراطه في صفوف الفدائيين ثم موته في « طوباس » بين الثوار :

ــ « طوباس » وراء الربوات ،
آذان تتوتر في الظلمات ،
وعيون هاجر منها النوم ،
الريح وراء حدود الصمت ،
تندلع ، تدمدم في الربوات ،
تلهث خلف النفس الضائع ،
تركض في دائرة الموت ..
يا الف اهلا بالموت ...
واحترق النجم الهادي ومرق
عبر الربوات
برقا مشتعل الصوت
زارعا الاشعاع الحي على الربوات ..
في ارض لن يقهرها الموت
ابدا لن يقهرها الموت ..

الاشارة الى موت الفدائي هذا مجرد تنويه ، مجرد وصف .

٢ ــ من الامثلة الحديثة البارزة على الاستعانة في التضمين بشعر الغير ، أو على الحل لشعر الغير ، قول الشاعر خليل خوري في قصيدته : الرسالة الخامسة الى ابي الطيب ..

ابا الطيب ..
دع العتبى ، فيوم صرخت من يأس ومن تعب :
واني شئت يا طرقي فكوني اذاة او نجاة او هلاكا
حملتك في دمي غصه
رأيت ملامح الانسان تكبر سقطة البطل الذي غنى :
سوادالليل، ظهر الخيل، رمل البيد، والصمصام والاقلام تعرفني
رأيتك عائدا للارض من دوامة الشهب ،
وما صدقت .. اشهد شدني عجب على عجب
وقلت اعاده للارض من اغراه بالسحب . .

البيت الاول : واني شئت .. ــ هو مجرد تنويه

بالشيء ، او ذكر له .. في حين البيت الاخر ، الـذي حله الشاعر من نظمه الاول ، الى نظم جديد (٥) ، هو عقد النظم ..

ثم يتحدث الشاعر خليل خوري عـن موت ابيه ، والضياع الذي عاناه اثر ذلك حتى يقول :

وضيعتي ، وصمت ، وغارب الاحزان يجرفني :
وانى شئت يا طرقي فكونـي اذاة او نجاة او هلاكا

التضمين هذا استعانة كاملة لكامل البيت ، لانهـا قامت مقامبوح الشاعر نفسه بما في نفسه ، ووصفـه حاله (٦) . ثم يقول :

وتسالني عن الدنيا ؟ عن الامجاد ؟ ! يؤسفني
ويجرحني السؤال ، اغص ، ما زالت يد النوب
تمـزق اوجـه العـرب :
طوائـف يا ابا الطيب :
ونرطن ، اعجميات لغانا ، بابليات ، وتنكر لوننا السمر ..
وتنـدب مجدهـا يثـرب ..
وانطاكية سبيت ، وليس هناك معتصم ، كان يدي ابي لهب
وشيطان على يافا ، وغاشية على النقب
وطوفان صليبي ، فقدس الله مسبي :
وجنكيز يسوس الناس بالتقتيل والغضب ،
وضائعة اماني الناس بين اللهو ، واللعب ..

ونرطن بابليات كناية عن عدم فهم بعضنا لبعضنـا الاخر ، ذكر سبي انطاكية ، والاشارة الى عدم وجـود معتصم تلميح الى حادثة اغاثة المعتصم لفتاة عمورية ، يدا ابي لهب ، وشيطان علـى يافا ، وغاشية علـى النقب ، كنايات عن الظلم والاذى (٧) . .

٣ ــ من الامثلة البارزة على تضمين الايات القرآنية والانجيلية قول بـدر شاكر السياب ، فـي قصيدتـه : شناشيل بنت الجلبي ..

وتحت النخيل حيث تظل تمطر كل ما سعفه ،
تراقصت الفضائح وهي تفجر ــ انه الرطب
تساقط في يد العذراء وهي تهز في لهفه
بجذع النخلة الفرعاء .. تاج وليدك الانوار لا الذهب ،
سيصلب من حب الاخرين ، سيبرىء الاعمى

ويبعث من قرار القبر ميتا هده التعب
من السفر الطويل الى ظلام الموت ، يكسو عظمه اللحما
ويوقد قلبه الثلجي ، فهو بحبه يثب ...

وقديما كان تضمين الايات القرآنية يسمى اقتباسا .. وقد ضمن الشاعر السياب هنا الآية القرآنية ، ثم لمح الى قصص من سيرة المسيح ، وبرء الاعمى ، واحياء الميت فـي كنايا ترمزية متلاحقة (٨) ..

وقد ضمن الشاعر ادونيس الاية القرآنية ... في قوله في فصل المواقف :

من يعطيني ورقة احملها اكداسا من البخور والصندل ،
انقطها كالعـروس واجلوهـا
اقـرأ عليها سورة مريم
اهز فوقها جذوعي من الشوق والحلم
وارسلها الى احبابي ،
مليئة كالتفاحـــة
خفيفة وخضراء كمهرة الخضر ..

مدلول التكنية هنا متساوق مع التجربة ويوحـي بالطمأنينة ، في حين التشبيه بمهرة الخضر مجرد تشبيه ، ميزته زخمه التلقيني ...

٤ ــ ومن الامثلة الحديثة البارزة على تضمين المأثور الديني الحكمي ، قول الشاعر الياس الفاضل في قصيدة : تمرد ...

واس فـي بلـد المبصريـن
شاهـدت مناحـة ،
بـلا دموع ، وبـلا اكاليل ،
قيـل ان صاحبهـا ،
حيـن يبست عينـاه ،
وضع في تابوت من الورق الاصفر
ودفن في قبر من الطين الحقير
صلاة المبصرين كانت هكذا :
« لقد وضعت الفاس على اصل الشجر
وكل شجرة لا تثمر ،
تقلـع وتلقـى فـي النـار ،
اننا نريـد شجرة ،
تظـل خضـراء . نحلف باسمها ،
فتعطينا الاريج والثمار الناضجة »..

ضمنها القول المأثور عن اقتلاع الشجرة العقيـم اليبوس .. وسياق تجربة القصيدة يجعل الصور البلاغية في التشبيه ، والاستعارة ، كنايات رمزية (٩) ، في مثـل يبوس العينين ، او الوضع في تابوت من ورق اصفر .. يقول الشاعر الياس الفاضل اثرها :

ــ اذن هبي ايتها العاصفة
وطوحي الهشيم ، ومحابر العدم
قبل ان يتوالد الدود في الهياكل
ويتكاثر الجراد على رخام المعابد ..

توالد الدود في الهياكل ، وتكاثر الجراد على رخام المعابد ايضا كنايتان رمزيتان (١٠) ، والى عدد مقبل نتابع هذا الجرد ..

دمشق — عدنان بن ذريل

(١) و (٢) راجع في عدد حزيران « يونيو » ١٩٦٨ ، وعدد ايلول « سبتمبر » ١٩٦٨ من الاديب الغراء مقالتي ، التجربة في صور البيان ، والتضمين في الشعر الحديث لعدنان بن ذريل . (٣) ــ راجع مثلا في عدد اذار « مارس » ١٩٦٦ من الاداب الغراء مقالة : من اوجه الحداثة في الشعر المعاصر لجبرا ابراهيم جبرا .. وكثيـر مـن تصريحات الشعراء ، ادونيس ، عبد الوهاب البياتي ، صلاح عبد الصبور وغيرهم توحي بالتوق الى التمييز بين انواع التضمين . (٤) ــ راجع مثـلا « التلخيص » للخطيب القزويني . (٥) ــ ليس لهذه الصورة البلاغية اسم مصطلح ، ولذلك اطلقنا عليها « عقد النظم » بعد حلـه طبعا . (٦) ــ هـذا المثـال الحديـث نموذج حديث للاستعانة في التضمين . (٧) و (٨) ــ يشيع اليوم هذا النوع من التلميح ، والذي يصحبـه احيانا سرد ، واحيانا اخرى استطراد ، او نجده مجرد تلميـح ، او نجده ممزوجا بالتكنية فيالتشبيه او الاستعارة او الكناية ، وسندرسه في عدد قادم . (٩) و (١٠) ــ كنا اوضحنا في اعداد سابقة فنيـة الصور البلاغية الرمزية ، وميزناها عن الصور البلاغية العاديـة ، وسنعود الى بحثها مع امثلة في عدد قادم ان شاء الله .

حسن العطار والشاعر بطرس كرامة

بقلم محمد عبدالغني حسن

* * *

تصادفنا في الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » عبارة نقلها المؤرخ علي باشا مبارك عن الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الازهر واستاذ الرائد المصلح رفاعة الطهطاوي يقول فيها المترجم له – اعني العطار نفسه – بنص عبارته: « قدم علينا بمصر عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والالف، كبير رجال الدروز لقيام اهل الجبال عليه، ملتجئا بوزيرها محمد علي . وقدم بصحبته بطرس النصراني ، فاجتمع بالفقير – يعني العطار نفسه – مرارا ، ورأيت منه ادبا جما ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والايام والانساب والنحو وغير ذلك . وكان يكتب الخط الحسن . وامتدحني بقصيدة منها :

« امـا الذكاء فانه	اذكى وابرع مـن اياسه
اضحى البديع رفيقه	لـمـا تفرد في جناسه
فـي اي فـن شئته	فكأنه بانـي اساسه »

والحق ان هذا الكلام الذي يقوله الامام المجدد الشيخ حسن العطار ، وينقله عنه الرائد المؤرخ علي مبارك باشا يحتاج الى تأمل كبير ، ولا يصح قبوله على علاته مهما كان مصدره . فان آفة المؤرخين حين ينقلون ان تختلط عليهم الامور ، وتتشابه عليهم الاسماء والصفات، وخاصة اذا كانوا ممن يجمعون ويصنفون ، لا ممن يحققون ويحللون . وما نريد بهذا الكلام ان نوجه طعنا الى علي باشا مبارك ، فان فضل الرجل في جمع المادة التاريخية لخططه فضل كبير لا يجحده الا مكابر . ولكن مثل هذا الجمع قد يكون في بعض الحالات مزلقة الى الوهم ووقوع الخطأ .

فمن هو كبير الدروز هذا الذي ثار عليه اهل الجبال والتجأ الى مصر محتميا بمحمد علي باشا ، ومن هو بطرس النصراني هذا الذي جاء بصحبته ، والذي كان جم الادب، حسن المحاضرة ، عارفا بالتاريخ والايام والانساب والنحو، والذي كان حسن الخط ، حاضر الشعر الى حد انه مدح الشيخ حسن العطار بقصيدة روى لنا المترجم ثلاثة من ابياتها ؟

الحق ان هذا الخبر قد يقبله القارىء العادي بدون أن يلفت نظره فيه شيء . ولكن القارىء المتعمق المتفطن للاحداث وتواريخ الرجال يقف عنده وقفات طويلات .

فكبير الدروز هذا لم يكن – كما روى واهما علي مبارك باشا عن حسن العطار – رجلا من الدروز بله ان يكون كبيرهم ، وانما هو الامير بشير الشهابي الذي لم يكن درزيا . اما كبير الدروز في لبنان يومذاك فكان الشيخ بشير جنبلاط ، وليس هو من بيت الامراء الشهابيين ، ولكن اسم (بشير) اختلط على الراوي والناقل . فبشير الشهابي الذي جاء الى مصر وفي صحبته «بطرس النصراني» هو غير الشيخ بشير جنبلاط كبير الدروز الذي لم يجيء الى مصر ، ولا عرف التاريخ انه احتمى بمحمد علي باشا او وفد اليه ...

والحق ان أهل الجبال – يعني جبال لبنان – قد ثاروا على الامير بشير الشهابي لاسباب سياسية ليس هنا مجال ذكرها . وكانت اسرة جنبلاط الدرزية تؤيد الامير بشير الشهابي وتناصره (1)، ليحفظوا بهذا نفوذهم وسطوتهم امام الاسر الدرزية الاخرى . ومن هنا جاءت العداوة بين الامير بشير الشهابي وبين الدروز . ولم يخضع بعض اهل لبنان لسلطان الامير بشير الشهابي ، وابوا ان يؤدوا الى خزانته المال المفروض عليهم، فقامت بينه وبينهم حروب ودسائس ، واستحدثت امور انتهت بمجيئه الى مصر سنة ١٨٢١ ملتجئا الى محمد علي ، ومتفاهما معه على بعض الاوضاع والمخططات في الشام، وفي صحبته شاعره الاديب اللبناني الكبير ، الشاعر بطرس كرامة صاحب ديوان « سجع الحمامة » ، واقرب المقربين الى الامير بشير الشهابي.

هذا هو (كبير الدروز) الذي اشار اليه الشيخ حسن العطار في كلامه عن نفسه الذي نقله عنه علي مبارك باشا في الخطط التوفيقية ، وهذا هو (بطرس النصراني)الذي كان في صحبته ...

وقد روى الكونت فيليب دي طرازي صاحب تاريخ الصحافة العربية ، والاب لويس شيخو اليسوعي صاحب « الاداب العربية في القرن التاسع عشر » البيتين اللذين قالهما الشاعر اللبناني بطرس كرامة في مدح الامام الشيخ حسن العطار حين قابله بمصر لاول مرة في ابان صحبته للامير بشير الشهابي ، وهما:

قد كنت اسمع عنكم كـل نادرة	حتى رأيتك يا سؤلي ويا اربي(٢)
والله ما سمعت اذني بمـا نظرت	لديك عيناي من فضل ومن أدب!

على ان الابيات السينية التي رواها حسن العطار نفسه هي من قصيدة طويلة للشاعر اللبناني بطرس كرامة في مدحه يقول (٣) فيها :

وافى يطوف بشمس كاسه	قمر تلثم فـي نواسه
طاب الصبوح ، فخذ علـى	ورد بوجنتـه وآسه
تكسو الحميـا خـده	قبسـا هدينا باقتباسه
حلـو اللمى ... لكنـه	ولـي الجفون على احتراسه
ابدا يجـور بلحظـه	مـن جفنه سيف افتراسه

(١) تراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان ج١ ص٦٤ – ٦٨ الطبعة القديمة (٢) تاريخ الصحافة العربية ج١ ص ١٣٠ و « تاريخ الاداب العربية » لشيخو ص ٥٢. وديوان بطرس كرامة ص ٢٩١ (٣) ديوان سجع الحمامة ص ٣٠٠

لقاء الغرباء

★

أتذكر أنا التقينا معا   هناك على قمة المنحدر
غريبين في عالم زاخر   وحيدين رغم ضجيج البشر
تمر الجماعات في دربنا   نراها ولكن كلمح البصر
تمر وتمضي وما من دليل   يشير اليها وما من أثر
ترانا نراها بعين الخيال   فتوهمنا بوجود عبر
فاني غريب وانت غريب   كلانا يطل على المنحدر

دمشق   سلافة العامري

ظبي تملك حبه   قلب المتيم مع حواسه
فتن الخواطر جفنه   لما تنبه من نعاسه
وغدا الفؤاد كناسه   فعلام يفتك في كناسه
افدي بروحي أهيفا   ما دمت حيا لم اناسه
من قاس بالاغصان قامته   توهم من قياسه ...
جاذبته بيد الهوى   حتى غدوت اعز ناسه
اتراه قاسى ما لقيت من   النوى او لم يقاسه !
مذ غاب عني لم يرق   لي مؤنس بعد ائتناسه ؟
قد كان لي كبد بها   القى النوى وشديد باسه
لكنني قد بعتها   بالوصل أيام اختلاسه
لم أنس يوم لقائه   لم أنسه وحياة راسه !
يادر مبسم ثغره   لازلت ترشف من لعاسه !
اصبحتتحكى نظم منشى النظم   من بعيد اتدراسه
حسن الثنا العطار صدر   الفضل بل مولى أناسه
حبر سحاب علومه   لم يرم يوما باحتباسه
ومهذب ينحط كل مهذب   دون اقتعاسه
اما الذكاء فانه   اذكى وابرع من اياسه
اضحى البديع رفيقه   لما تفرد في جناسه
لم يلتبس من مشكل   الا جلا وجه التباسه
في أي فن شئته   فكانه باني اساسه
يا من بلاغته حكت   سيل الحيا عند انبجاسه
خذ بنت فكر اقبلت   تهدي القريض لبان آسه
ترجو نوال تسامح   لم تات الا بالتماسه ..
واسلم ودم ما أهيف   وافى يطوف بشمس كاسه ..

وتبلغ ابيات هذه المدحة البطرسية للشيخ حسن العطار تسعة وعشرين بيتا . ويلاحظ ان بناءها وألفاظها ومضمونهالم تخرج عنمسنون الشعر في ذلك العصرالذي كان التقليد فيه غالبا الى حد كبير. وعلى الرغم من سخافة النسج، وتفاهة المعنى ، ومحاكاة القدماء فيعصور الانحطاط الادبي، فقد عد الشاعر بطرسكرامة من كبار شعراء ذلك العهد ، واستأثر برضى الامير بشير الشهابي استئثارا زحزح الشاعر نقولا الترك عن مكانته عنده .

ولم يمدح الشاعر اللبناني بطرسكرامه الشيخحسن العطار وحده في مصر ، بل مدح العالم الكبير الشيخ المهدي ، ولكنه خلط في مدائحهبين العلماء والقيان... فمدح بمصر مغنية في عصر محمدعلي كانت تدعى « أم رضوان » ، فقال فيهاواحسن :

رعى الله مصرا ! ان مصرا لجنة   يزول بها من صاحب الهم همه
ففي جنة الفردوس رضوان وحده   وفي مصر رضوان كذاك وأمه !

والحق ان بطرس كرامة اعجب بمصر كلها ، ما بين علمائها وقيانها ، ورجالها ونسائها ، فقال يمدحها بقصيدة مطلعها :

تجلت لدينا في محاسنها مصر   فراق لنا وجه المسرة والبشر

ولقد وهم صديقنا المؤرخ الجليل الاستاذ محمود الشرقاوي صاحب كتاب « مصر في القرن الثامن عشر » فذكر في صفحة ٥٠ من الجزء الاول من كتابه ان الذي قدم الى مصر في أيام محمد علي وتعرف اليهالشيخ حسن العطار « هو رجل من الدروز اسمه بطرس ». ولن نضيف هنا تصحيحا جديدا . فبطرس كرامة لبناني مسيحي ، كان شاعر الامير بشير الشهابي ، وما كان درزيا في يوم من ايام حياته ..

القاهرة   محمد عبدالغني حسن



بقلم عبد الحميد الانشاصي

كان يرى متجولا في الاسواق حاملا على صدره بسطة معلقة بعنقه بقشاط سميك من الجلد . ومن يلق نظرة على بسطته يـر بزورا مختلفة محمصة وضعت في خانات بفواصل خشبية . بزور يتحلب لها الفم لما ادخر فيها من لذة لا وجود لها في غيرها من البذور التي يعرضها غيره من الباعة . لقد حار الناس في تلك اللذة الغريبة التي لا يولدها في البذور احد سواه في المدينة كلها . ما السر في ذلك ؟ السر في قلب الرجل الذي يبيعها ـ معروف . هناك نكهة عجيبة شبيهة بنكهة اللحم المشوي . من اين اتت؟ ان معروفا رجل فنان يعرف كيف يحمص البذور وكيف يجذب اليه الناس ويجعلهم يقصقصون بذوره ويمضغونها وهم يشعرون بمتعة لا مثيل لها وبرغبة شديدة في تذوق تلك المتعة مدى الحياة .

معروف رجل فقير ضخم الجسم اسمر اللون ولكن سمرة لونه فيها شيء من الحمرة الشبيهة بالحمرة الخفيفة التي تعلو البذور المحمصة. وشعره الغزير المشوب ببضع شعرات بيض تستره طاقية من الصوف الابيض المخطط بخيوط بنية اللون . جفنا عينيه السفليان منقلبان قليلا ، وباطنهما احمر لا يرتاح النظر اليه . وعيناه واسعتان جدا يخيل الى من ينظر اليهما ان معروفا يحدق اليه بهما مع انه يرنو الى شيء اخر . وفمه واسع ممتلىء الشفتين متباعدهما. وشفته السفلى تتدلى في كسل واهمال . وبطنه مندلق في قوة يحول بين معروف والانحناء لربط حذائه او رؤية قرش يقع منه على الارض على مقربة من قدميه . ومن ير ظهره المقعر وبطنه المحدودب يشعر ان ذلك الرجل يحمل ثقلا يحتاج معه الى راحة طويلة بالاستلقاء على كنبة تتسع لجلوس ثلاثة اشخاص .

(معروف طيب القلب . قلبه يفيض عطفا ورحمة وانسانية وان كان أميا بسيط المنبت غليظ الشكل دميم المنظر) .

« اعطني قليلا من البذور يا معروف . ان بذورك شهية لذيذة ـ هات حفنة من بذورك يا معروف . ـ وفقك الله يا ابا نظمي ! »

انه يقدم شيئا من بذوره بلا ثمن . يقدمها هدايا للمعجبين به كلما سار في الاسواق مناديا على بضاعته . يقدم بذوره عن طيبة قلب وهو يبتسم الى الناس حاسرا شفتيه عن اسنانه الكبيرة اللامعة.

كل يعرف معروفا ـ ابا نظمي . كثيرون من الناس يثنون عليه ويصفونه بطيبة القلب والكرم والانسانية .

انه يهدي من بذوره الشيء الكثير ، ولكنه يبيع منها ايضا الشيء الكثير . لقد كسدت بذور غيره من الباعة لان بذوره هو شهية ولانه يمتاز بالكرم والانسانية .

الآن يرفع معروف امامه عربة عليها بسطة واسعة تحتوي على بذور متنوعة نهضت في اشكال كالتلال والاهرام ـ بذور كثيرة ولكنها تباع بسرعة . معروف بائع موفق تدر عليه بضاعته ربحا غزيرا وان كان التجار يستهينون بها ولا يأبهون لها .

لقد ارتقى معروف سلم النجاح والشهرة بسرعة . انه الآن صاحب حانوت فيه بذور وفستق وبندق ولوز وقضامة . يشتري منه الساهرون الذين يقضون ساعتين في دور السينما ما يحتاجون اليه من تلك البضاعة اللذيذة التي يعرضها . يقصدون اليه وان كان بعيدا عنهم . ليس من الضروري ان يحملها في بسطة او يدفعها على عربة متجولا في الاسواق . لقد اصبح الان شهيرا ، وبضاعته دائما طازجة ساخنة . .

ولم يكتف معروف بذلك بل جعل يبيع في قسم من حانوته الوانا من الساندويش للساهرين الذين يخرجون من منازلهم دون ان يتناولوا عشاء . وبذلك اتسعت اعمال معروف ، وانهالت عليه الاموال من كل صوب . انه الآن مسؤول عن ثلاثة عمال يعملون في حانوته . ولا عمل له الا الاشراف على تحميص البذور وصنع مواد الساندويش ، والجلوس وراء طاولة واسعة انيقة في مكان من الحانوت حيث يستقبل اصدقاءه ومعارفه .

شيدت له دار فخمة واشترى سيارة خاصة ، ثم اقيمت له ثلاثة حوانيت ، فنقل اليها بضاعته ، واصبح الآن احد التجار البارزين في المدينة .

وابنه نظمي يتلقى العلوم في جامعة القاهرة . انه يدرس الطب. وهو تلميذ ناجح يأخذ علامات جيدة في الامتحانات . والناس يقولون : ان معروفا رزق ولدا نجيبا لانه طيب القلب ويستحق هذه النعمة التي اسبغها الله عليه ـ الولد الذكي والاموال الوافرة .

ومع ذلك فان معروفا لا يزال متواضعا يلاطف الناس جميعا



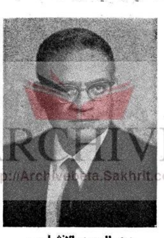
ويتحبب اليهم ويرحب بهم في حوانيته في حرارة وابتسام . يساير الفقراء والبسطاء كما يساير الاثرياء والوجهاء . وهو كثير النكات حلو الحديث يمازحه المعارف من تجار وصناع وعمال كما يمازحه الاصدقاء .

لقد تراكمت امواله . يريد ان يقوم بأعمال اخر غير تلك التي يقوم بها . انه يأبى ان يتركها في المصارف دون ان يستثمرها ويعود بالفائدة على عدد من العمال من ابناء مدينته .

سمع منذ بضعة ايام ان فئة من الاغنياء اجمعوا على ان يؤلفوا شركة لانشاء مصنع لليف المعدني. انه المصنع الوحيد في نوعه الذي فكر اولئك الاغنياء في انشائه في المدينة . اجتمع معروف بتلك الفئة من التجار وعرض عليهم ان يشترك معهم في انشاء المصنع . ولكنهم ابوا عليه ذلك متظاهرين بأنهم ليسوا في حاجة الى شريك بالاضافة الى الشركاء الذين تم الاتفاق على ان تؤلف الشركة منهم. ولكن تبين لمعروف بعد ذلك انهم رفضوا ادخاله في الشركة لانه نبت من اصل وضيع لا ينسجم مع اصولهم « العريقة » المعروفة في المدينة . من هو ابوه ؟ الم يكن عتالا ؟ ومن هي امه ؟ الم تكن غسالة ملابس ؟

حز في نفس معروف ان يرفضه اولئك التجار المتعجرفون لهذا السبب ـ ضعة الاصل . كتم في نفسه ثورة صاخبة :

(اصوات من الداخل : معظم الناس نبتوا من اصول وضيعة . لقد نسي سليمان الفرهودي ان جده كان مزارعا بسيطا يزرع الفجل والبندورة في قطعة ارض لا تزيد مساحتها على دونمين . ويوسف حمدان نسي ان جده الاول كان فلاحا يعيش في بيت من الطين بقرية لا يعرف الكثيرون الطريق التي تؤدي اليها . ليس في تلك الشركة رجل عريق الاصل سوى عبد المجيد راشد . انه من آل راشد الاثرياء المعروفين . ولكنني لست ادري لم رضي ان يدخل سليمان الفرهودي ويوسف حمدان في الشركة وردني خائبا . ان ذينك الرجلين ليسا افضل مني . انني وان كنت بسيط الاصل غير انني الآن من الموسرين البارزين ومن التجار الموفقين المرموقين . كل يعرفني ويحترمني ويلاطفني . وفي امكاني ان انشيء مصنع الليف المعدني وحدي دون الاستعانة بأحد



عبد الحميد الانشاصي

●

من الشركاء . انني قادر على ذلك لدي من الاموال ما يكفي لتنفيذ ذلك المشروع الحيوي الهام) .

(منظر في الداخل : يدخل معروف على الشركة وهي مجتمعة في غرفتها ويصيح بأعضائها قائلا وهو مربد الوجه : انكم لستم بكوات ، ولست انا عاملا عندكم . ان كنتم قادرين على ان تنشئوا مصنعا لصنع الليف المعدني فان في امكاني انا ايضا ان انشيء مصنعا آخر مثله . وسنرى اينا يتفوق على منافسه : انا ام انتم) .

« اصوات من الخارج : هذا تاجر لا شأن له وان كان غنيا . كل يستخف به ويمازحه . فكيف نشركه في انشاء المصنع ؟ منذ بضع سنوات كان يرتدي قنبازا ويبيع البذور في بسطة معلقة برقبته . ايجلس رجل كهذا بجانبنا ؟ وهل في امكانه ان يدلي برأي ذي قيمة ؟ ان الظروف هي التي اوصلته الى هذه الدرجة من الغنى . انه رجل امي سخيف لا يستحق تلك الثروة التي احرزها . ـ ان ابا نظمي يستحق كل خير . انه افضل بكثير من تلك الفئة المتعجرفة المتعالية التي استأثرت بمصنع الليف المعدني . ابو نظمي رجل طيب القلب دمث الخلق وهو في الوقت نفسه ثري . انه خير من مئات الرجال .

ـ دعوهم ينشئون ذلك المصنع . انني اعرف كيف اغيظهم واتفوق عليهم . انا أبو نظمي » .

انشأت الشركة مصنعها، وباشرت العمل . وسرعان ما رأى اعضاؤها بناء ضخما يشيد لمعروف بائع البذور والساندويش .

ـ لمن هذا البناء ؟

ـ لمعروف السروجي .

ـ لاي شيء شيد ؟

ـ لانشاء مصنع لليف المعدني.

ـ لقد انشيء ذلك المصنع . نحن الذين انشأناه .

(يا له من رجل صغير العقل . أيريد ان ينافسنا ؟ لا بد من ان نجره الى الافلاس ونعيده بائع بذور في بسطة كما كان) .

كثيرون من الناس اخذوا يشجعون معروفا على انجاز عمله . كل يريده ان يتغلب على تلك الشركة المتعجرفة .

ـ لقد احسنت صنعا يا ابا نظمي . ان مصنعك اوسع من مصنع منافسيك ، وآلاته احدث واسرع واتقن انتاجا من آلات ذلك المصنع . وفقك الله يا أبا نظمي ! لا ريب انك تستحق كل خير لانك رجل طيب .

ـ كل ذلك لمصلحة أهل بلدي . لقد قنعت بالربح الضئيل في سبيل مصلحة أهل بلدي .

(انني لست طماعا اتهافت على المال كما تفعل تلك الشركة) .

ـ اجل ان ما ينتجه مصنعك ارخص ثمنا مما ينتجه مصنع تلك الشركة . انك قنوع. ولهذا السبب أسبغ الله عليك نعمه .

(أؤكد لك ان الشركة لا بد ان تفلس ويبقى مصنعك وحده في المدينة) .

ـ لقد استحضرت لمصنعي خبراء معروفين برواتب ضخمة وعمالا نشيطين .

(انني مخلص في كل شيء : في تحميص البذور والحبوب وصنع الساندويش وفي انتاج الليف المعدني ايضا) .

ـ ان هذا ما يجعلك تتفوق على منافسيك . انت لست بخيلا كأصحاب ذلك المصنع . ان ما يهم الناس هو الانتاج المتقن الرخيص الثمن . ومعارفك واصدقاؤك كثيرون . انك محبوب . اهل المدينة جميعا يذكرونك بالخير . فلا شك ان الناس لا يعاملون احدا سواك . ستروج بضاعتك وتكسد بضاعتهم .

(لعنة الله عليهم ! ما امكرهم وما اخبثهم ! انهم لئام لا يحبون الا نفوسهم . ولكن الله بالمرصاد) .

وقد راجت بضاعته فعلا . ان عملاءه كثيرون، ومعارفه واصدقاءه عديدون . صار الشخص الذي يشتري منه بذورا محمصة او ساندويشا يشتري منه ليفا معدنيا ايضا . واصبح عدد كبير من التجار عملاء له يبتاعون منه كميات كبيرة من الليف المعدني . وبذلك ازداد شهرة فوق شهرته الاولى .

وهذا ما كان سببا في افلاس مصنع الليف المعدني الذي تديره الشركة . لم تستطع الشركة ان تثبت امام معروف فأفلست . ولم تجد بدا من ان تبيعه آلات المصنع بثمن بخس . وكان تفوق معروف على منافسيه حديث التجار والجلساء في المقاهي والمارة في الشوارع والاسواق . رجل واحد يصارع رجالا وينتصر عليهم . امي من أصل وضيع يتغلب على وجهاء اثرياء ذوي نفوذ وثقافة . « لقد سحق منافسيه بما يمتاز به من دماثة الخلق وحلاوة النطق وحسن المعشر » : هذا ما يقوله العوام . « لقد جر معروف الافلاس على الشركة بذكائه وملاحظته الثاقبة في فهم حاجة الناس وكيفية ارضائهم »: هذا ما يقوله التجار . « ان الليف المعدني الذي ينتجه مصنع معروف السروجي متين الصنع يدوم مدة طويلة » : هذا ما تقوله النساء في المنازل .

★

لقد تخرج نظمي في جامعة القاهرة . تفوق بدرجة امتياز . انه طبيب الان . طبيب متخصص بالقلب . انه الطبيب الوحيد المتخصص بالقلب في المدينة . لذلك غصت قاعة عيادته بالمرضى .

ومما زادهم عددا شهرته التي انبثت في المدينة ، فقد صار الناس يعرفونه طبيبا بارعا لا شبيه له . وكما انهال المال على ابيه من قبل انهال عليه ايضا فأصبح ثريا . وهو الآن يريد ان يتزوج . مضى شهر وهو يبحث عن فتاة يعجب بها ويؤثرها على غيرها من الفتيات . انه طبيب مشهور . ولا شك ان الحسان يتنافسن في كسب قلبه وحبه . هو شاب جذاب ملامح الوجه وان لم يكن جميلا ، ومتناسب اعضاء الجسم وان لم يكن نحيف القامة . فيه ذكاء وثقافة وموهبة وخلق حميد ورقة في المعاملة . فكيف لا تتنافس الفتيات في كسب قلبه وحبه ؟

ـ ان سميرة السعيد فتاة رائعة الجمال . شقراء وشعرها الطويل شبيه بسبائك من الذهب . هل تود ان أخطبها لك ؟

(قالت لي جارتي : لو ان ولدها عزب لخطبتها له . اياك ان تتركها لغيرك) .

ـ لقد رأيتها مرارا يا أمي . ولكنها ليست مثقفة . فكيف استطيع ان اعيش معها ان تزوجتها؟

(انك لا تعرفين ذوقي . انت تختارين الفتيات اللواتي يرقن في نظرك لا اللواتي يرقن في نظري) .

ـ وابتهاج نور الدين ؟ انها من أصل عريق وثرية وذات وجه صبيح وقوام نحيف . هل تميل اليها يا ولدي ؟

(انها زهرة بنات المدينة فلا تهملها . ليس في المدينة فتاة افضل منها) .

ـ اعرفها . انها مجردة من الانوثة المعنوية . جامدة . قطعة واحدة كتمثال لا حياة فيه .

(دعيني اختار فتاة تروقني ولا تحملي نفسك مشقة الاختيار ، فأنا ادرى منك بالجمال الحقيقي) .

عبوس وانقباض ونفور . واصطدام وخيبة وحيرة . هذا ما بدا على وجهي نظمي وامه .

ـ يخيل الي انك تحب . هل وقع اختيارك على فتاة يا بني ؟

(صارحني . كن صريحا معي) .

فكر نظمي هنيهة وهو يبتسم ونظره منكسر الى الارض خجلا . ولم يجب امه بكلمة .

ـ قل يا بني . اجب . ما لك ساكتا ؟ لا شك انك تحب فتاة لا تريد ان تذكر لي اسمها .

فضحك نظمي مقهقها ، وبدا في مظهر ولد صغير استولى عليه الفرح . ثم رفع نظره الى امه وقال:

ـ اشعر برغبة شديدة في الزواج بأمل .

(انها فتاة فاتنة استولت على عقلي من اول نظرة القيتها عليها . فكيف لم تخطر في بالك يا امي ؟)

ـ أمل من ؟

الى ولدي

ولدي وما أحلاه من ولد هذا ولي العهد بل سندي

ماذا ساورثه سوى أدبي … والشعر غير الشعر لم أجد
يا ليت لي الدنيا لاعطيه … الدنيا لكي يحيى على رغد
سميته ـ عيسى ـ على اسم ابي … أيكون هذا الشبل كالاسد
أيكون مثل أبي بطلعته … وبحوثه والعلم والجلد ؟
هذي أجل ، أمنيتي كمنت … في أن أراه قبلة البلد
يا ليتني أحيا لانظره … رجلا عظيم الشأن بعد غد
قبلته وحملته بيدي … فكأنما حملت يدي كبدي !
وتكاد عيني لا تصدقني … واخال هذا الكون ملك يدي
فأراه مثل وريدة فتحت … وأراه مثل الطائر الفرد
هذا عماد البيت وافرحي … والبيت أصبح ثابت العمد
فاذا يئست فانه أملي … واذا وهنت فانه عضدي !
وله أخيات سعدن به … واحطنه بمحبة وودد
والام يرقص قلبها فرحا … وتزقه قبلا بلا عدد
حمدا لربي هاك افعمني … فضلا وهل أنساه للابد
والـذ موسيقى يرددها … صوتي اذا ما صحت : يا ولدي!

زحلة ـ لبنان … رياض معلوف

ـ أمل المهتدي .

فقطبت امه مفكرة ، ثم بسطت اسارير جبهتها وقالت :

ـ آ ! مديرة المدرسة الثانوية ؟

ـ اجل . هي نفسها .

(انك لا تستطيعين ان تقولي انها ليست جميلة ـ بل اجمل فتاة في المدينة) .

فزاغ بصرها الى ناحية ، وغاضت حيوية وجهها ثم قالت :

ـ ان هذه الفتاة طلب يدها كثيرون من الشبان الاثرياء وابناء الوجهاء ، فرفضتهم جميعا .

(انها فتاة متكبرة وليست جميلة كما تتوهم . ولست ادري كيف وقع عليها اختيارك) .

فشعر نظمي بفتور في قلبه ، ثم قال بنغمة رخوة :

ـ لماذا ؟

(لعك في اولئك الشبان عيوبا لا تعرفينها) .

ثم شعر بفيض من الثقة وقال :

ـ ولكنها من المحال ان ترد طلبي . لا بد ان ترضى بي زوجا .

(انني طبيب موفق . وكل الفتيات يتهافتن على الاطباء) .

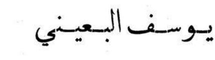
ولكن أمل المهتدي رفضت طلبه وقالت لامها : « أأتزوج شابا كان ابوه بائع بذور متجولا وجده عتالا وجدته غسالة ؟ انني مديرة مدرسة ومثقفة وجميلة وذات حسب . هذا محال » .

وهكذا كسف الشاب الطبيب البارع المشهور الثري ابن التاجر معروف الذي يملك مصنعا لصنع الليف المعدني وحوانيت لبيع البذور والحبوب المحمصة والساندويش والذي يملك دارا فخمة وسيارة خاصة انيقة ، لا لشيء سوى انه وضيع الاصل وتلك الفتاة التي طلب يدها عريقة الاصل .

« انبذ تلك الفتاة المتكبرة . ارمها ولا تفكر فيها . سأطلب لك يد أجمل فتاة في المدينة . دعك من الحسب والاصل . المهم الخلق المتين والجمال الرائع . والتي سأخطبها لك تجمع بين الجمال ومتانة الخلق . انها افضل فتاة في المدينة . وستستصوب رأيي بعد ان ترى تلك الفتاة الخلابة . استمع الي واعمل بنصيحتي، فانني خبير بالحياة واعرف كيف اجعلك تتغلب على اولئك الذين تكبروا عليك كما تغلبت على شركة مصنع الليف المدني » : هذا ما قاله معروف لولده في سخط وثقة .

وقد خطب معروف لولده فتاة منقطعة النظير في المدينة . اعجب بها ولده نظمي اعجابه هو وزوجته بها . وحينما سمعت امل المهتدي بخطبة نظمي عضت شفتها السفلى ندما وقالت في نفسها : « يا لي من فتاة غبية ! »

عمان … عبد الحميد الانشاصي



يوسف البعيني

بقلم شكرالله الجر

* * *

يوسف البعيني قضيب من الورد لفه الموت بمنديله ، وكتلة من لوزعية ما ان اطلت على قمة الاربعين حتى هوت على رغمها تناشد ظلا من ظلال الابدية لتستريح..

اتراه اجم الحياة فعافها ؟ لا لا بل احبها على شتى حالاتها وصورها . انما الموت وهو عدو الحياة ما برح يقتلع من احضانها كل محب لها وحبيب الى قلبها ليوقفها على ضريحه منبوشة الشعر مقرحة الاجفان .

وهذا تمثالها المنتصب على مدخل مدينة الاموات في جبانة « سان باولو » ما مر تحته نعش من نعوش الشباب الا القت عليه زهرة ورصعته بدمعة.(١)

اما أن ينهال التراب على ذلك الجسد الفض والجبين المتهلل المشرق ، ثم يسدل ستار النسيان على عبقرية البعيني فهذا الم مزدوج . ولعل اقرب المقربين اليه في الامس اذا ذكروه اليوم ، فكما يخفق برق او يرف جناح !

فلا رسم يذكرنا به ولا مجموعة من اثاره نرجع اليها. وهو الذي سكب قلبه في ادبه رحيقا يسكر الشاربين.. انه واحدة من تلك الشموع الذائبة في هياكل الفن. انه شراع تائه في بحر الظلمات ، وعلم من اعلامنا المنطوية في عتمة المجهول !

نظم البعيني في حياته قصيدة واحدة كانت يتيمة العمر عنده .. ولماذا ينظم اكثر من قصيدة ؟ وكل ما قرأناه من نثره ينزل منازل الشعر من النفوس اذا انقصته القافية والوزن فما نقصته الومضة والنبرة والنغم .

والشاعرية العارمة الاصيلة لا ترضى الاوزان قيودا وحدودا ، بل هي كالانهر الصاخبة تكتسح السدود والجسور لتغمر التلال والسهول .

اما يتيمته الخالدة فاليكها بأوزانها وقوافيها :

وتعالي في الصباح ... نرتدي الشمس وشاح
فوق اكتاف التلال ... وامسحي دمع الليالي
عن عناقيد الدوالي ... وازاهير الاقاح

واذا هل القمر ... خلف عزال الشجر
يتهادى في فتون ... فاضحا ما في العيون
من شكوك وظنون ... وشؤون وشجون
تختبي بين الزهر
فتعالي نحتس كأس الوصال بعد هجر وانفصال بين هاتيك الظلال

وليكن ما قد يكون

أترى تحمل هبات الرياح ... عن ليالينا
خشة الفلك وتهليل الصباح ... عن شواطينا
وعن الاطيار في الروض صداح ... موقظا فينا
ذكر أوقات عذاب ... في حمى فجر الشباب
قبل ايام اغترابي ... بين زهو وتصابي وقبل
كل شيء غاب في دنيا الغير ... من امانينا
ورضينا بالذي خط القدر ... فوق ايدينا
من تباريح اغتراب وكدر ... راح يفتننا
ليس للايام عهد ... لا ولا للشوق حد
فالصبا لا يسترد ... والهوى جزر ومد كالامل

عرفت البعيني للمرة الاولى التي عرفت فيها « سان باولو » مدينة الصناعات الجبارة وهي المعروفة بـ (منشستر — البرازيل) تجمع فيهامئات الالوف من السوريين واللبنانيين ، ومنهم اصحاب المعامل الضخمة والمتاجر الكبرى . وفيها الصحافة العربية الراقية ، من مجلات ادبية شهرية ، وصحف اخبارية يومية واسبوعية حتى بلغ عددها في وقت من الاوقات الثلاثين صحيفة . وفيها العشرات من ادباء العرب،من شعراء وكتاب واساتذة جامعات . وقد شاء ادباؤنا ان يسجلوا قدومي الى تلك المدينة بحفلة اكرامية كان من خطبائها البعيني . وهكذا تعارفنا وجها لوجه وعينا لعين . ومنذ تلك الليلة انبثق في نفسي فجر جديد لصداقة جديدة ونبيلة . وعندما انشأت في عاصمة الاتحاد « مجلة الاندلس الجديدة » كان أول من طرز صفحاتها بغرر بيانه . وكنا كلما زرت سان باولو لاغراض صحفية يكاد لا يفارقني الا ساعات العمل . وتأتي بعدها مواعيدنا مع العشيات الندية نطل منها على مباهج الحياة، في سمر شيق وشباب اخضر ريق.

كان البعيني رحمه الله جميل الرجولية ، انيق المظهر ذا سمرة خمرية تجتذب اليه العشرات من حاملات الغزل في عيونهن ، ورسائل الحب على شفاههن . حتى كانت حنجرة الهاتف في بيته تغص بزقزقاتهن ، بين حرارة البث ، وحلاوة النجوى ، تتجاوب كلها مع نكهة في صوته وعذوبة في حديثه .

وكنا في ليالي الاحاد والاعياد ، نهبط مدينة السانطوس وهي المرفأ الطبيعي لولاية سان باولو ، والمنتزه البحري المفضل لدى سراة القوم وارباب المال . وهي الخليج العريض المنفتح على الاتلانتيك تضيق فنادقه بمئات الضيوف من اغنياء السوريين واللبنانيين ، مما يذكرنا بخليج قرطاجة واجدادنا الفينيقيين ولياليهم المعربدة على بحيرة المتوسط اذ كان لهم على كل بحر مرفأ ، وعلى كل خليج مرقص شأن احفادهم المنتشرين اليوم على شواطىء المعمور .

ومن مباهج النظر الى تلك الضفاف « كازينو

(١) على بوابة جبانة سان باولو تمثال للحياة فيريدها باقة من الزهر

حديث الربيع

يا غيمة .. بعثرت جرحي على عمري   وايقظت غفوات الريح .. في وتري
اشعلت في افقي المهدوم .. زوبعة   من الشموس .. عرايا .. في مدى حجري
رجلاي .. ما زال في الطرقات .. نوحهما   ينمو .. جريحا .. كذكرى عاشق غجري
مهدما .. يطعم الاوتار .. من غده   نارا .. ومن يومه الدامي .. رؤى السفر
عامان .. والعطش الرملي .. ينهشني   وعند بابي .. تبكي خيمة الضجر
عامان .. والجرح يهذي عبر حنجرتي   والحزن غيمة رعب .. والحنين طري ..

يقال .. ان غبار الامس .. رأيته   غطت مشاجبك الخرساء .. بالصور
يقال .. ان على شفتيك .. منتحب   كل اشتهاء البراري الصفر .. للمطر
يشاع انك .. لكن كيف .. كيف صحا ؟   من بعد عامين .. جوع الساحل العطر ؟

الريح .. ما عبرت ، ليلا ، شواطئنا   الا وحدثت الغافين ... عن سهري
اني .. على سوري المنخور .. منزرع   رمحا .. يسائل ليل الشوك .. عن قمر
اني .. على الدرب .. مهجور .. صنوبرة   عجفاء .. تحلم بالافياء .. والمطر

بغداد

علي جعفر العلاق

اتلانتيك اوتيل » وقد حشد في قاعاته الفسيحة كل انواع الملاهي . فمنها ما خصص للموائد الخضراء حيث تطلع نجوم الحظ وتغيب ، ومنها ما هو للتريض بالرقص على نغمات الموسيقى الهادرة كعصف الريح والناعمة كنسيم البحر .

وفي احدى ليالي الكازينو العامرة وبعد ان تعبنا من مخاصرة القدود الرشيقة تحولنا الى موائد « الروليتا » في الجناح الآخر لنكشف عن دورة الحظ عندنا ، في صحنها الاحمر المستدير وان هي الا دقائق حتى عدنا عنها نردد قول الشاعر المرحوم عقل الجر وله مع هذه اللعبة الجهنمية شؤون وشجون قال :

ودائرة كالدهر تلعب بالمنى   وتزجي بروج الحظ في فلك النحس
دعوها (روليتا) وهي في حكم طبعها   تدور ولكن بالدواهي على الرأس
لها كرة بيضاء حين تخالها   تهاوت على العشرين تهوي على الخمس
يطوف فيها القانطون على رجا   ويصدر عنها الاملون على يأس
دلفت اليها عامر الجيب في المسا   ووليت عنها في الصباح بلا فلس

وبينما نحن في حيرة مع الحظ يغازلنا قليلا ويتجهم كثيرا اذا بسيدة حسناء تقبل علينا بلهفة وتخاطب العزيز يوسف واظن انه يعرفها ..

ارجوك يا سيدي ان تتلطف وتصحبني الى منزلي مع صديقك اذا شئت .. لكوني ربحت مبلغا لفت الانظار واخشى من شرك في الطريق !؟

واندفعنا مع السيدة المجهولة الى منزلها ، فاذا نحن امام قصر تخاله من قصور الف ليلة وليلة ، غريب الرياش نادر التحف .

لم يكن في القصر سوى بعض الوصيفات ، رحن يهيئن لنا ما لذ من طعام ، وما زلنا حتى اوشكت عيون الفجر ان تتفتح ، فقمت ألملم اذيالي وعدت ادراجي تاركا صديقي . وعندما رجع الي في عشية اليوم التالي ، راح يسألني والبسمة على ثغره !؟

الم توحي لك ليلتنا الخالدة شيئا من الشعر ؟ فقلت ما شاء الله .. اتراني أتيت معك لاكون مؤرخا لمغامرتك ..

ثم دفعت اليه بورقة خضراء فراح يقرأها بلهفة :

يا حسنها من ليلة   ملات حواشي العمر عطفا
كتب الزمان سطورها   بيد المنى حرفا فحرفا
يا للقوام الحلو منداحا   على مهد وثير
يا للجمال مجردا   للعبين في حلل الحرير
يا للانوثة في مفانج   ظرفها المتألق
تهتز بين يدي في   لهف التشهي الشيق
تلك الوسائد ما تزال   على سرير حالم
اترى ستذكر انها   نعمت بخد ناعم

والان يا يوسف يا رفيق شبابي وغربتي ، كم تمنيت وانا اتنقل هذا الصيف في لبنان وعلى مشارف نهر «افقا» الذي طالما سكرت بانغام خريره ، وفي غابة الوزال التي اظلتك ظلالها وناجتك اطيارها . وبين منعرجات «الهدينة» قريتك الكئيبة . اجل كم تمنيت لو انقل اليك منها يا دفين الغربة ، باقة من ذكريات طفولتك وصباك فيها وأغطي ضريحك بوشاح من ثلوج ذروتها وازهار واديها ..

جبيل ــ لبنان

شكرالله الجر

الشيخ عبدالله القلقيلي ـ نجيب ساعاتي فؤاد ترزي ـ راضي صدوق

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الشيخ عبد الله القلقيلي

ظلت الحكمة التي تعشقها الشيخ القلقيلي وترنم بهـا قول الحسن البصري : « رحم الله رجلا نظـر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبـر فابصر ، وأبصر فصبر ! » .

ولد الشيخ « عبد الله » في بلدة قلقيلية بفلسطين عـام ١٨٩٩ وانهى دراسته الابتدائية في مدرسة بلدته الحكومية وكان يديرهـا العالم الشيخ محمد العورتاني المعروف بعلمه وزهده وتقواه !

وفي عام ١٩١٢ قصد الشيخ القلقيلي مصر طلبا للعلم والتحـق بالازهر الشريف وامضى فيه حوالي ست سنوات ونـال الشهادة الاهلية ، لكنه تطلعا الى المزيد من العلم التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية وسلخ فيها سنتين ونشر بعض المقالات في جريدة « الكوكب » التي كان يصدرها في القاهرة الشيخ محمد القلقيلي .

وبتكليف من الدكتور احمد ضيف ، وكان استاذا للادب العربي في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، القى الشيخ « عبـد اللـه » محاضرتين قيمتين بعنوان « اللفظ والمعنى في كتاب الصناعتين » لابـي هلال العسكري ، نشرهما الشيخ محمد القلقيلي فـي « الكوكب » ولاقتا من الدكتور احمد ضيف وزملائه العاملين في الحقل الادبـي اطراء وتقديرا .

وخلال وجود الشيخ « عبد الله» في القاهرة انتسب الى الحركة الوطنية بزعامة المرحوم سعد زغلول وعمل سرا في منظمات وطنية لكـن رجال المباحث تعقبوا اثره ، واكتشفوا خبره ، وسجلوا اسمه فـي القائمة السوداء !

وفي عام ١٩١٩ والثورة الوطنية مشبوبة اللظى في مصر عـاد الشيخ « عبد الله » الى فلسطين ، وبعد ان درس الحالة عن كثب .. عول على العودة الى مصر لان مجال العمل فيها واسع ، لكـن بعض اخوانه العاملين فـي حقل التربية والتعليم توسموا فيـه الخيـر لفلسطين فشجعوه على البقاء فـي الارض الملتهبة ، لتوعية الجيـل الصاعد وتثقيفه ، لكنه صمم على مغادرة فلسطين الى وادي النيـل مهما كانت البواعث والاسباب !

وقبل ان يبارح بلده الغالي زار بيت المقدس للقاء زميل الدراسة الحاج محمد امين الحسيني فلقـي شقيقه المرحوم الشيخ كامـل الحسيني الذي شجعه على البقاء في البلاد والتضحية فـي سبيل المصلحة العامة .

وخلال هذه الفترة عين المربي المرحوم احمـد سامح الخالدي مفتشا للتعليم في يافا وبالحاح منه قبل الشيخ القلقيلـي التدريس في « العامرية » الثانوية وشرع في تعليم الديـن واللغة العربيـة وآدابها . لكن طرأ خلاف بينه وبين المسؤولين في ادارة المعارف العامة بالقدس كان سببا في نقله الى ثانوية غزة ، واستنكارا منـه لهـذا النقل قدم استقالته وعاد الى يافا وعين استاذا للعربية وآدابها فـي مدرسة الفرير وهنا نزعت نفسه الى الصحافة فنال امتيازا بجريـدة يومية اسماها « الصراط المستقيم » وصدر العدد الاول منها في يافا صباح ٢ ايلول ١٩٢٥ ، وكانت هذه الصحيفة الوطنية مسرحا لاقلام الكتاب والساسة الفلسطينيين واسهم الشيخ صاحبها بقلمه فـي محاربة الاستعمار والصهيونية وشجب تهويد فلسطين .

وظلت « الصراط المستقيم » تصدر في يافا الى ان حلت الكارثة الفلسطينية عـام ١٩٤٨ فنزح الشيخ عبد اللـه الـى دمشق وزاول التعليم في ثانوية درعا ومنها عاد الى دمشق وعلم في مدارس حكومية ثانوية ونشر مقالات قيمة في جريدة « الف باء » لصاحبهـا المرحـوم يوسف العيسى وفي غيرها وفي مجلة « التمدن الاسلامي » لصاحبهـا الاستاذ احمد مظهر العظمة .

وفي عام ١٩٥٥ نزح فضيلته الى عمان عاصمة الاردن وعين مفتيـا عاما للمملكة تقديرا لكفاءاته العلمية واصدر مجلة دينية اجتماعيـة باسم « هدي الاسلام » وصدر العدد الاول منها في آب ١٩٥٦ .

وفي منصب الافتاء الذي أسند لفضيلته كان الشيخ عبد اللـه موضع ثقة علماء الدين في العالم الاسلامي ، وتلقى منهم عشرات من الاسئلة الدينية فكان يجيب عنها بفتاوى معللة تعليلا عصريا مقبولا . وكانت هذه الفتاوى تنشر تباعا في مجلة « هدي الاسلام » التي كانت مجلة الافتاء وظل في هذا المنصب الرفيع الى ان احيل على التقاعـد في نهاية عام ١٩٦٧ .

من آثاره القلمية : عالج الاستاذ القلقيلي موضوعات دينيـة هامة بقلم التجرد والنزاهة وحارب البدع والخرافات التـي الصقت بالدين الطهور عمدا ، وكشف عن جوهر هذا الدين المثالي . ودونك اسماء ما وقفنا عليه من آثاره القلمية :

١ ـ المجموع الاول : ابحاث علمية اسلامية وفتاوى في مسائـل حديثة شرعية طبع في عام ١٩٥٤ .

٢ ـ فتاوي علماء الدين في موضوع قانون الوعاظ والمرشديـن طبع في عام ١٩٥٥

٣ ـ من وحي رمضان : مجموعة احاديث كتبها فضيلته خـلال شهر رمضان طبع في عام ١٩٥٦ .

٤ ـ الفتاوى الاردنية : يتضمن هذا الكتاب الفتاوى التـي اصدرها فضيلته ابان عمله مفتيا عاما في الاردن .

٢ ـ الدكتور نجيب مخائيل ساعاتي

في « بيت المقدس » رأى نور الحياة عـام ١٨٨٥ وتلقـى دروسه الابتدائية والثانوية في مدرسة بطريركية الروم الارثوذكس في مسقط رأسه ، وتابع علومه العالية في « معهد المصلبة » اللاهوتي واحـرز عام ١٩٠٦ بين عشرات اليونانيين الاجانب شهادة في آداب اللغـة اليونانية والفلسفة والرياضيات واللاهوت ، وانتسب للكلية الشرقية في زحلة بلبنان ونال شهادتها عام ١٩١١ وفي طليعة اساتذته فيهـا المؤرخ الموسوعي الاديب المرحوم عيسى اسكندر المعلوف .

وفي عام ١٩١٣ عاد المترجم له الى بيت المقدس ومـا لبث ان بارحها الى الاسكندرية ليعمل استاذا ممتازا لليونانيـة والعربيـة واللاتينية ، وظل يؤدي عمله هذا لغاية عام ١٩٦٦ .

وفي عام ١٩٦٠ عين الدكتور ساعاتي مديرا لمعهـد الدراسات اليونانية في الاسكندرية التابع للحكومة اليونانية . وخلال سنـي عمله ١٩١٣ ـ ١٩٦٦ نشر مقالات قيمة في مجلات وصحف يونانيـة وعربية صدرت في مصر وفلسطين وسورية ولبنان واليونـان واشهرها « النفائس العصرية » و « الانصاف » ـ القـدس ـ و « المقطـم »

و « الصخرة » ـ القاهرة ـ و « الزهرة » ـ حيفا ـ و « الآثار » ـ زحلة ـ و « لسان الحال » ـ بيروت ـ و « مجلة طب الاسنان » و « اليوناني المتمصر » ـ الاسكندرية ـ .

وراس الدكتور ساعاتي تحرير مجلتي « المنارة الكنسية » (وقد صدرت باليونانية من سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٥٢) و « الراعي الصالح » (وقد صدرت بالعربية من سنة ١٩٤١ ـ ١٩٥٢) ، واشرف على تحرير نشرة صدرت عن « معهد الدراسات اليونانية » بالاسكندرية ونشرت مقالات عامية وتاريخية وادبية باللغتين العربية واليونانية وبعض ابحاثه نقلت الى اللغة الالمانية .

وعندما استانفت مجلة « النعمة » الدمشقية صدورها عن دار البطريركية الانطاكية الارثوذكسية اسهم الدكتور ساعاتي في تحريرها ونشر فيها مقالات دفاعا عن فلسطين من الناحيتين الدينية والسياسية .

وفي عام ١٩٦٠ قام الدكتور ساعاتي ، بوصفه مديرا لمعهد الدراسات اليونانية ، برحلة علمية الى اليونان على رأس نخبة من ادباء وعلماء واطباء مصريين من الاسكندرية والقى محاضرات قيمة هدفها توطيد الصلات العربية ـ اليونانية .

وأسهم الدكتور ساعاتي في تحرير موسوعة « بيرسوس » ـ وموسوعة « بابيروس ـ لاروس » اليونانيتين رغبة منه في تصوير مكانة العرب في شتى العلوم والمعارف على مر العصور .

ونظرا لتضلعه من اليونانية وآدابها ولتبحره في علم اللاهوت رشح مرتين ليكون مطرانا عربيا في الكرسي البطريركي الارثوذكسي بالاسكندرية لكنه اعتذر عن قبول هذا المركز الديني الرفيع ، مستمتعا بمكتبة حافلة بشتى المطبوعات النفيسة .

نموذج من نثره : « من الظواهر العجيبة التي تسترعي نظر الباحث المدقق في شخصية طه حسين الفريبة ان البيئة التي ولد وترعرع فيها لم تكن كافية لاطفاء ظمأه وتغذية عقله بالعلوم والمعارف التي تيسر له اقتباسها في كتاب الريف وجامعة الازهر والجامعة المصرية القديمة في القاهرة ، انما كان يطمح الى الزيادة المقرونة بالشيء الجديد ، وكان يسعى لهذا الغرض السامي في غير شفقة ولا رحمة ، عاملا على هدم جسمه النحيل في أمر المطالعة والتحصيل . وفي الوقت نفسه كان يسعى لمحو آثار الضعف الذي يلازم جسمه منذ السنة الثانية من حياته تحت سماء مصر .

وقد وفق طه حسين في الوصول الى امنيته هذه معتمدا على العقل في النظر الى درس الاشياء والناس والكائنات . ولا أدل على ذلك من أن الفلسفة التي آمن بها ادباء الشرق والغرب ومفكروها على ممر الاحقاب قد اتخذها مادة حيوية لغذاء عقله وتغذية طموحه . والشباب في عرفه ثروة عظيمة ورمز الكفاح والقوة .

ولذا فاننا نرى طه حسين بعد ان فاز بلقب دكتور قد حول انظاره الى أفق جديد ليرى هناك الشيء الجديد ، ويسمع الشيء الجديد ويقتبس الشيء الجديد ، ولم تخب احلامه وآماله في كل ذلك .

كانت سياسة الجامعة المصرية القديمة منذ تكوينها عام ١٩٠٨ تهدف الى اعداد مجموعة طيبة من الاساتذة المصريين يقومون بالتدريس فيها بدلا من اساتذتها الاجانب والمستشرقين وغيرهم ممن كانت تنتدبهم من المصالح الحكومية . فاوفدت عدة بعثات علمية وفنية الى اوروبا ، وكان بين شبان بعثة سنة ١٩١٤ الدكتور طه حسين وقد قررت هيئة الجامعة ايفاده لمدينة باريس ليتخصص في التاريخ ، وكان موعد سفره في الاسبوع الاول من شهر اغسطس ١٩١٤ .

ولنشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) تاخر موعد السفر فارسل الدكتور طه حسين الى الجامعة يعرض عليها رغبته في تدريس آداب اللغة العربية بالجامعة حتى يحين موعد السفر ، فوافقت الجامعة على طلبه هذا وقررت له مكافاة قدرها اربعة جنيهات .

وفي شهر ديسمبر ١٩١٤ ابحر الدكتور من الاسكندرية الى مرسيليا على الباخرة « اصفهان » وفيها تخلص من الزي الازهري وكان يصحبه في سفره شقيقه حامد حسين وقررت الجامعة له مرتبا شهريا خاصا قدره (١٥) جنيها كما تكفل ابوه بارسال خمسة جنيهات اخرى عونا لولديه .

لم تطل اقامة الطالب في مونبلييه اكثر من ثمانية شهور عكف فيها على دراسة اللغة الفرنسية واللاتينية ثم عاد الى مصر في يوليو ١٩١٥ وذلك لان الحرب اثرت تاثيرا بالغا على ميزانية الجامعة الفتية فلم تقو على دفع نفقات بعثتها الخارجية .

وفي اوائل عام ١٩١٦ عاد الدكتور طه حسين الى باريس والتحق بجامعة السوربون بدلا من جامعة مونبلييه وتابع دروسه بهمة لا تعرف الملل ، وما لبث ان اعد رسالة للحصول على دكتوراه الدولة في الآداب تحت عنوان : « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » فنال ما تمناه بعد مناقشة علنية بدرجة « ممتاز » في شهر مايو ١٩١٧ . وفي شهر اكتوبر من السنة نفسها عاد الدكتور طه حسين الى مصر بعد ان سمحت له الجامعة بزيارة قصيرة لبعض العواصم الاوربية ، وفي ٩ نوفمبر ١٩١٧ عين استاذا للتاريخ القديم بالجامعة » .

من آثاره القلمية : سخا قلم الدكتور نجيب مخائيل ساعاتي على الخزانتين العربية واليونانية بعشرات من المقالات والكتب، واكثرها يدور حول العرب وحضارتهم والشؤون الشرقية ، وغرضه من ذلك اطلاع اليونانيين على ما يحفل به الادب العربي من كنوز واعلاق ، ودونك ابرز تلك الآثار :

١ ـ مختصر تاريخ ديرطور سيناء . سنة ١٩٢١

٢ ـ بيضة الفرخة في اللغة والتاريخ والآثار والاقتصاد . سنة ١٩٢٢

٣ ـ كنيسة اورشليم في مرويات سعيد بن البطريق ويحيى الانطاكي . سنة ١٩٢٦

٤ ـ المجدد علي عبد الرازق وكتابه في الخدمة . سنة ١٩٢٦

٥ ـ شخصية سيدنا عيسى في القرآن الكريم . سنة ١٩٣٠

٦ ـ سعيد بن البطريق : بطريرك الاسكندرية (٨٧٧ ـ ٩٤٠). سنة ١٩٣٤

٧ ـ دير مار جرجس في مصر القديمة (٧ اجزاء) . سنة ١٩٣٦ و ١٩٥٩

٨ ـ القبط والكنيسة القبطية الارثوذكسية . سنة ١٩٣٧ و١٩٥٢

٩ ـ آداب الكنيسة اليونانية على مر الاجيال في مطبوعات ومخطوطات عربية . سنة ١٩٣٨

١٠ ـ الكتاب المقدس في اللغة العربية . سنة ١٩٤١

١١ ـ مزارات الحبش (دير السلطان) في الاماكن المقدسة ، سنة ١٩٤٣

١٢ ـ التطور الحديث للشعوب العربية . سنة ١٩٤٣

١٣ ـ كنيسة الاسكندرية في ثورة عرابي باشا . سنة ١٩٤٧

١٤ ـ دير مار سابا في الاسكندرية (من سنة ٣٢٠ ـ ١٩٤٩). سنة ١٩٤٩

١٥ ـ اركان الاسلام . سنة ١٩٥٤

١٦ ـ أصل الابجدية العربية . سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٢

١٧ ـ أدباء يونانيون عالجوا دراسات مصرية . سنة ١٩٥٥

١٨ ـ انجيل برنابا في آداب اللغة العربية . سنة ١٩٥٧

١٩ ـ شخصية مريم ام المسيح في القرآن الكريم . سنة ١٩٥٨

٢٠ ـ من حياة الدكتور طه حسين . سنة ١٩٥٩

٢١ ـ كتب عربية مبسطة لتعليم اليونانية (جزءآن في ٣٦٦

صفحة) .

٢٢ ـ المسيحية في آداب اللغة العربية (من القرن السابع الى الخامس عشر) . سنة ١٩٦٢

٢٣ ـ نظرة خاطفة حول الثقافة اليونانية في الديار المصرية (من سنة ١٨٥٠ ـ ١٩٦٤) . سنة ١٩٦٤

٢٤ ـ سجل الصحافة اليونانية في مصر (من سنة ١٨٦٢ ـ ١٩٦٣) . سنة ١٩٦٤

٢٥ ـ سجل الكتب اليونانية في مصر (من سنة ١٨٥٣ ـ ١٩٦٦). سنة ١٩٦٦

٢٦ ـ الصحافة الدولية في اولى خطوات حياتها في مصر (من سنة ١٧٩٨ ـ ١٨٨٢) .

٢٧ ـ تاريخ كنيسة اورشليم الوطنية (مخطوط) .

٣ ـ الدكتور فؤاد حنا ترزي

القاعدة الذهبية التي سار عليها الدكتور ترزي قول الدكتور زكي مبارك : « ان اللغة العربية هي التي ستجعل لنا قدم صدق في الآخرين ، وهي التي ستسطر محامدنا على جبين الزمان » .

ولد في غزة عام ١٩١٤ ، من اسرة معروفة . واثر انتهاء الحرب العظمى الاولى انتقلت اسرته الى بئر السبع حيث انهى دراسته الابتدائية ، ثم انتقلت الى الخليل حيث اتم قسطا من دراسته الثانوية . وفي عام ١٩٢٨ التحق بالكلية العربية في القدس فأتم دراسته الثانوية وحصل على شهادة الاجتياز الى التعليم العالي ، وشهادة في التربية والتعليم . وعلى الاثر عين معلما في الكلية الرشيدية بالقدس عام ١٩٣١ . وخلال ذلك داب على الدراسة الخاصة فنال عن طريقها شهادة المعلمين العليا عام ١٩٣٦ . وفي عام ١٩٤٥ عين مديرا للمدرسة العمرية بالقدس ، وكانت معهدا لتدريب المعلمين آنذاك . ولاول مرة في تاريخ التعليم في فلسطين طبق « اسلوب المشروع » **Project Method** في هذا المعهد . ثم انتدبته حكومة فلسطين عام ١٩٤٧ لحضور دورة تعليمية في انكلترا لدراسة نظم التعليم فيها . وما ان عاد الى البلاد حتى كانت تتمخض عن حرب اهلية . وحدثت النكبة عام ١٩٤٨ فانتقل من القدس الى بيت لحم حيث عمل في الحقلين الاجتماعي والعلمي . فمن حيث الحقل الاول عمل على تشكيل لجنة لاستقبال اللاجئين الوافدين من القدس وتقديم المساعدات الاولية لهم ، كما عمل سكرتيرا للجنة الموظفين التي كان من شأنها الاتصال بسفارات الدول العربية لحثها على الاستفادة من خبرة من تعطل منهم عن العمل بسبب الظروف السائدة آنذاك . ومن حيث الحقل الثاني اسس مع بعض الزملاء ندوة ادبية لالقاء المحاضرات ، والمناقشة في شتى المواضيع الثقافية .

وفي نفس السنة انتدب للتعليم في العراق فعمل مدرسا في مدرسة العمارة الاعدادية وصف المعلمين الملحق بها .

وفي عام ١٩٥٣ عين مدرسا في الكلية الثانوية العامة في بيروت. وبعد عامين نقل استاذا الى الجامعة الاميركية فيها . وخلال هذه الحقبة نال شهادة بكالوريوس في الآداب (بامتياز) ، وماجستير في الآداب العربية من نفس الجامعة .

وفي عام ١٩٦٦ نال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى من جامعة القاهرة في اللغة العربية .

وللاستاذ ترزي جولات واسعة في حقل الاذاعة ، فكثيرا ما كان يطلب اليه الاشتراك في برامج خاصة ، أدبية واجتماعية ، لمحطة الاذاعة الفلسطينية ، ومحطة اذاعة الشرق الادنى ، ومحطة اذاعة لندن .

من آثاره القلمية : وله كذلك جولات عريضة في حقلي الترجمة والتأليف . فقد اشترك في ترجمة « ذهب مع الريح » لمرغريت ميتشل ، و « تاريخ العلم » لسارتون ، و « العالم » لستامب. والف: « مسلم بن الوليد ـ صريع الغواني » ، و « الوسائل السمعية والبصرية المساعدة في تعليم اللغة العربية » ، و « دراسات لغوية »، و « الاشتقاق » . كما حقق ديوان كشاجم ، وحقق ونشر ثلاث رسائل لابن سينا ، والخفاجي ، والسكاكي ، في الاصوات ومخارج الحروف العربية . ونشر كثيرا من البحوث والمقالات في مختلف المجلات العربية .

نموذج من نثره : ويتسم اسلوب الاستاذ ترزي في بحوثه بالرصانة والدقة العلمية . ولعل افضل ما يمثل منها منهجه العلمي المقطوعة التالية المنتزعة من مقدمة كتابه « الاشتقاق » :

« وقد انتهجت في هذه الدراسة منهجا علميا يقوم على ربط النتائج بأسبابها ، واستخلاص الحقائق من قرائنها ، دونما تأثر بقول او تحيز لرأي . فلم آخذ برأي قديم لمجرد قدامته ، ولم أتمسك بنظرية حديثة لمجرد حداثتها ، وانما أخذت من القديم والحديث ما يتفق وطبيعة العربية ، وينساق وسنن المنطق ، ويجري والمبادىء الاساسية لعلم اللغة الحديث .

ولم اكن في كل ما ذهبت اليه لاخلص الى استنتاج دونما سند، او اقرر حقيقة دونما تثبت ، او اقطع برأي دون ان اعتمد على ما يدعو اليه من شواهد ، خشية اعتساف الاحكام وارتجال الامور . واذا ما تعددت الآراء في امر كنت اتولى مناقشتها ووضعها على محك المنطق ، لاخلص منها الى حكم حاسم ، أو رأي مرجح ، ما امكن .

ولم يكن الاجماع في مسالة ليردني عن التشكيك فيها ، او يرهبني من نقضها ـ اذا اقتضى الامر ـ الا اذا كانت تتصل بقاعدة ثابتة او حكم راسخ ، وقديما قال ابن جني ان اجماع النحويين في المسائل الصرفية ليس حجة فيها .

وقد اقتضى المنهج الذي اعتمدته ان امهد لدراستي بتحديد الاشتقاق ومفهومه ، وان اتخذ من هذا التحديد سبيلا الى حصر الموضوع ، فادخل فيه ما ينتمي اليه ، وابعد عنه ما لا يمت اليه بصلة . ولئن تجاوزت نطاق هذا الحصر احيانا فان هذا التجاوز لم يكن ، في الواقع ، غير ضرورة اقتضاها الحصر نفسه . وقد استهدفت في هذا البحث امرين رئيسيين .

الاول : الخروج بنظرية اشتقاقية متكاملة تتفق وواقع لغتنا ، وتتواءم وعلم اللغة الحديث .

والثاني : درس طرق الاشتقاق واحكامه بشكل يتفق وهذه النظرية ، ولا يتجافى والقواعد اللغوية التي وردت في كتب اللغة والنحو الاصيلة .

وكان لا بد لي ، في سبيل الهدف الاول ، من مراجعة النظريات المختلفة التي قيلت في الاشتقاق قديما وحديثا ، ثم نخلها ونقدها ، وسبر مدى صحة انطباقها على واقع اللغة .

كما كان لا بد لي ، في سبيل الهدف الثاني ، من ان اجمع كل ما استطعت الوصول اليه من احكام تتصل بالموضوع ، ثم تبويب هذه الاحكام وتصنيفها بشكل يدعم ما ذهبت اليه في النظرية الاشتقاقية.

ولم يقتصر اهتمامي على ضروب الاشتقاق المطردة المعروفة بل تعدى ذلك الى نوع من الاشتقاق اسميته « الاشتقاق غير المطرد » فافردت له فصلا ، وجعلت منه موضوعا لدراسة خاصة خرجت منها ببعض النتائج .

اما المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذه الدراسة فكثيرة ومنوعة . ولم اوثر أيا منها على الآخر الا بالقدر الذي يتميز به عن غيره في اصالة المادة ودقتها ، وبالقدر الذي يتصل فيه بمادة المبحث الجزئي الذي ينتمي اليه .

ولقد حاولت الافادة من قديم هذه المصادر والمراجع وحديثها ، وكنت شديد الحرص على أن استمد من الاصول منها العناصر الاولية

لهذه الدراسة ، وان اجعل من الاخرى وسائل لاستبطان تلك العناصر والافادة منها .

واعتمدت من المصادر القديمة امهات كتب النحو واللغة ، لا أكاد استثني منها شيئا ذا شان . وكان محجتي بينها كتـــاب سيبويه ، وخصائص ابن جني ، ومخصص ابن سيده ، ومزهر السيوطي . ولئن كانت هذه الكتب تفتقر الى المنهجية الحديثة في البحث ، فانهــا تشكل – من حيث المادة – ينابيع ثرة لا يكاد يفــور ماؤها او ينضب معينهــا .

٤ – راضــي صـــدوق

ظل « راضي » ينادي مــع السر « هول كين » (١) فــي رسالتــه الانسانية :

« كن نقيــا !

كن نقيا في سريرتك قبل علانيتك ، ليس من أجل المجتمع او لتتفادى ذمه ، بل لانك انسان ، ولانك يجب ان تكون نقيا نبيلا ! » .

وولد « راضي » في مدينة طولكرم الوادعة فــي السهل الاخضر عام ١٩٣٨ وتحدر من اسرة تعود بنسبها الى عشائر « الحويطات » ، وكانت تستوطن قرية « سفارين » بقضاء طولكرم لكنها نزحت الــى « طولكرم » منذ مئتي سنة وعمادها الزراعة لكـن النكبة الفلسطينية الاولى طوحت بها الى فجاج من البسيط العربي ففقدت بذلك الارض والثروة الزراعية .

وتنتمي والدة « راضي » الى اسرة « الدسوقي » المصرية الاصل وقد رحل بعض افرادها الى فلسطين واستقروا فــي بعض القــرى الشمالية من فلسطين ، وخاصة قرية « دالية الروحه » . ولقد ورث « راضي » كثيرا من الصفات الشخصية عن والدته وقــد اشتهرت بصوفيتها ونقاوتها وايمانها وصراحتها .

وبعد ان عصفت النكبة الاولى بما تملك اسرته فــي « طولكرم » من حطام الدنيا خرج « راضي » الى ميدان العمل ليعيل اسرة ضخمة فضحى بآماله وطموحه وعكف على تثقيف نفسه بنفسه ، فدرس تاريخ الشعوب وآدابها وفلسفاتها في مختلف العصور ، كما عكف علــى دراسة الكتب السماوية وقرأ « التوراة » بتعمق بطبعتيها الكاثوليكية والبروتستانتية ، كما قرأ « العهد الجديد » و « القرآن الكريــم » وغاص في دراسة اليهود تاريخا وحضارة وسياسة وانكفا على الدراسة الخاصة يعارك الدهر ويحلب شطريه ، حتى اتيح لــه نوال شهادة المعلمين والتربية وعلم النفس ، وعين معلما وشرع في نشر نفثاتــه الشعرية في الصحف والمجلات وبثه من دور الاذاعة .

وولج « راضي » المجال الصحفي فعمل محرّرا فــي جريــدة « الجهاد » اليومية المقدسية ثم سكرتيرا لتحريرها وانتقل منهــا للعمل في جريدة « الدفاع » اليومية المقدسية ، وساهم في تاسيس جريدة « المنار » اليومية المقدسية وانفصل عنها قاصدا الكويت ليكون رئيسا لتحرير مجلة « حماة الوطن » وللفرع الثقافي العسكري فــي الجيش الكويتي ومديرا للثقافة العسكرية بوزارة الدفــاع . وانتخب معلقا سياسيا للاذاعة الكويتية ، كما كان مديرا لتحريــر جريــدة « الوطن » الاسبوعية ومعلقا سياسيا لجريدة « الهدف » الكويتية .

وفي ربيع عام ١٩٦٦ ودع الكويت الى الاردن وعمل فــي اجهزة الاذاعة والنشر والاعلام ، وتولى رئاسة تحرير مجلة « رسالة الاردن » ومستشارا ثقافيا لدار الاذاعة الاردنية ورئيسا لتحرير مجلة « هنــا عمــان » .

ورغم الالتزامات العملية المترتبة عليه ظل شارعا قلمه ، وناشرا نتاجه الادبي في كبريات المجلات العربية مثل « الاديب » و « الآداب » و « الانطلاق » ببيروت و « المعرفة » بدمشق و « الاقلام » العراقية و « الشعر » و « الثقافة » و « الرسالة » بالقاهــرة و « الافــق الجديد » ببيت المقدس ، وكان نتاجه الشهري مزيجا مــن الشعر والقصة والمقالة والنقد ، حتى تعذر على الكثيرين التمييز بين ميوله الادبية واتجاهاته الثقافية . وعند عمله في الكويت اسهم في احيــاء الحركة الادبية والثقافية والصحفية كما اسهم في تاسيس « رابطــة الادباء الكويتية » وفي مجلتها « البيان » ومثل الاردن فــي المؤتمر الثالث للكتاب الاسيويين الافريقيين المنعقد في بيروت عام ١٩٦٧ .

من آثاره القلمية : لو قيس نتاج « راضي » وهــو فــي ربيع الحياة ، بنتاج الآخرين ممن هم في خريف العمر لرجحت كفته علــى كفات الكثيرين من حملة الاقلام الشابة في دنيا العرب . ودونك اسماء آثاره المطبوعة والمخطوطة :

١ – « كان لي قلب » ديوان شعر طبع عام ١٩٦٣

٢ – « النار والطين » ديوان شعر طبع عام ١٩٦٦

٣ – « ثائر بلا هوية » ديوان شعر طبع عام ١٩٦٦

٤ – الكلمات الاولى ديوان شعر .

٥ – النفاق في الشعر العربي (دراسة مطولة) .

٦ – كلمات ليس لها تاريخ (قطع وجدانية مــن النثر الفني) جزءان .

٧ – فلسطين هزيمة ... تجربة ... مصير

٨ – الرغيف المحروق وقصص اخرى .

(نالت احدى قصص هذه المجموعة وهي بعنوان « البرشامة » جائزة القصة القصيرة في المسابقة التي اعدتها جريدة « الحوادث » البيروتية للكتاب العرب) .

وفي عام ١٩٥٨ دعا المجلس الاعلى لرعاية الاداب والفنون فــي الجمهورية العربية المتحدة نفرا من الشعراء المعاصرين فــي العالــم العربي لالقاء الوان من منظومهم ، وكان « راضي » في عدادهم ، وقد اصدر المجلس الاعلى كتابا بعنوان « مختارات مــن الشعر العربي الحديث » ضم نماذج من شعره .

نماذج من نثره : « ازمات العروبة الناشبة التي تطل برأسهــا بين الحين والحين ، يمكن ان اعزوها الى سبب رئيسي ، ذلكم هــو ان الفكر العربي في معزل عن قضايا المصير العربي . المفكرون العرب سادرون في متاهات الضياع ، منفيون بالقسر والجبر ، عن هيئات التخطيط التي ترسم ملامح المستقبل للامة جمعاء .

الفكر العربي الحر ، غير الملتزم ، الفكر العربي اللامنتمي لايــة سلطة ذات هوية خاصة . الفكر العربي الذي يقول ما يعتقد ، بنظافة ليس يخلط بين قداسة الفكر المطلق ، وبين دنس المنافع الذاتيــة الآنية . هذا الفكر عاطل عن العمل ، عجلاته مغروسة في طين الاهمال ، دماغه يعشش فيه الصدأ ، عيونه مطفأة ليس فيها بريق . هذا الفكر سجين اخلاصه لافكاره النبيلة الواعية ، لا يترخص ولا يتبـذل . لا يبيع كلماته ولا عواطفه ، فهو يؤمن ان كل مــا يملك من فكــر ووجدان ، لامته جميعا ، ليس من حقه ان يفرط به .

النخبة الخيرة الكبيرة من المفكرين العرب ، لا تملك ان تقــول كلمتها : الكلمة التي يتحتم ان تقال ، من اجل المصير الواحد . هذه النخبة ضعيفة منسية ، يعشش في جيوبها الفقر ، وليس في قناديلها قطرة من زيت .

تلك هي ازمة حقيقية تعاني منها الامة العربية ، وهي في الحــق أم الازمات ، ان تلفتت امتنا الى علاجها بعمق ، فانها ستعالج بها ، ازمات اخرى كثيرة ، فالفكر الثاقب الواعي ، العامل باخلاص وايمان ، كفيل بان يبدد السحب الكثيفة الراكدة في سمائنا الصافية ، كمــا آسن . فهل ترانا نقف قليلا عند هذه المشكلة ، وقفة تامل ... وقفة استعبار ؟ » .

نماذج من شعره : وفي ليلة تفيض بالسماحة والطهر ... ليلــة ذكرى مولد السيد المسيح ... سمع « راضي » وهو على مقربة من

مدينة « المهد » قرع النواقيس تهليلا لهذه المناسبة ، وايذانا باطلالة ذكرى سيد السلام فانشد متسائلا :

نواقيس « عيسى » لمن تقرع ؟ لشعبي؟.. وهل فيه من يسمع ؟
وهل فيه عرق أبي الدماء ؟ وقد نأت الدار والاربع ؟
هنالك في الغور اشلاؤهم حفاة على ارضه جوع
لقد لعق الدهر اكبادهم وما نزفت منهمو ادمع
يشردهم ادعياء « المسيح » وتجار انجيله اللكع !
أيا غرب ... يا موئل الطامعين أفي مهد «عيسى» الهدى تطمع ؟
وتعزف انشودة للسلام وفي كفك السيف والمدفع ؟!
بلاد « المسيح » لابنائه لمن نصروه وما روعوا

ويتمنى « راضي » على الشعر ... ان يظل لغة السماء ... ولسان القلب ... وترجمان الفؤاد .. وان لا يسف بهبوطه الى الارض ... دنيا الغدر وقاعدة الفسق والرياء ... ويمضي في مخاطبة اغاني الشموخ بصراحة الشاعر الدامي الحشا ... الجريح القلب ... ويرجو ان تظل تلك الاغاني ... محلقة في عليائها .. وان لا تهبط الى الارض ... لتظل موفورة العزة والانفة والكبرياء :

يا أغاني الشموخ ، لا تهبطي الارض ، وظلي موفورة الكبرياء
ودعي العازفين في حمأة الزيف يغنون للخنا ... للرياء
وارفعي صرخة الوقار نشيدا عبقري اللهاة والاصداء
اهتفي ... اهتفي ... أغاني اني اغرف الحرف من معين الدماء
أجدل اللحن من ضميري وروحي ثائر النبض ... غامرا بالعطاء
كلمات من الخلود ... وكونا من ربيع ... وجدولا من ضياء
أنا سر من الغيوب تجلى في نشيد منزل من علاء
شاعر يغسل الحروف ... تغذيها الجراحات بالرؤى والرواء
ينسج الحلم اغنيات عذارى تسكر الروح بالرحيق النقاء
يخصب الارض خضرة وكروما واغاريد ساحرات الغناء

ليثر عالم الرياء ويصخب
والنيوب الزرقاء ، فلتتوثب
والجحيم المسعور ، فليتلهب
لست اخشى جنونها ... لست أرهب
انا اقوى من اللظى ... حين اغضب

انا من يحفر الطريق بعينيه ، ويمضي على متون الرياح
أذرع الغيب جيئة وذهوبا مركبي الليل ... والنجوم جناحي
لا اغني لعالم من رياء ... زائف اللون ... والرؤى والجراح
قدست صرخة الخلود نشيدا ازلي الحروف والافصاح
تغسل الارض بالضياء وتطوي سوأة الليل في ضمير الصباح
ان من يغزل الدموع لحونا لا يماري للعالم السفاح
أنا للارض .. للتراب .. وللجوع .. وللحق .. للملا .. للكفاح
أنا من عالم الخلود اغني لخلود الانسان .. للارواح
للضمير الجريح ، يشرق بالدمع شقيا .. مستسلما للنواح
اهتفي .. اهتفي .. اغاني اني رافع جبهتي وملق سلاحي

أنا ملق سلاحي الدرب أرضا
ان صوت الخلود اقوى وامضى !
فاصرخي في الفضاء طولا وعرضا
ليثور الوجود ... خفقا ونبضا
ويهل الصباح ... اكرم ومضا

يسكر الدهر من لحونك ... غني انبل الشعر ، اهتفي يا أغاني
تلتقي عندك الليالي حبالى بالعظيمات ... في جنين الزمان
انت بين الزحام ، انشودة الخير ونجوى الضمير والوجدان
زيفوا العالم البريء وغاضت نهلة الطهر في الرؤى والمعاني
أطفأوا الله في الصدور وغنوا لاله الاهواء ... للشيطان
سفحوا النور في الدروب قتيلا وأراقوه في محاجر الفيلان ؟

فارفعي صرخة الشموخ وغني للربيع الكريم ... للانسان
يا أغاني ... يا ضميري مذابا في نشيد ... مقطرا في اغان

اعصفي ... اعصفي ... وثوري وثوري
وانفخي الصور بين صمت القبور
نفخة البعث واللظى والنشور
لتفيق الاجداث عبر الدهور
صافيات الاحلام طاهرات الصدور

وفي ساعة من اليأس والفزع ... راح « راضي » يتساءل عن هذا « الطين » عن هذا « الانسان » الذي صيغ من تراب .. وروته الحياة بدفقات مائها :

سألتك : من نحن بين البشر ؟
ومن نحن في عالم يحتضر ؟
وقلت : انا من تراب الحياة
وانت الي مياه العمر

تذكرت ، والقلب لما يزل قويا على الخفق والذكريات
تذكرت ، والامس ما زال غضا تزغرد في جانحيه الحياة
تذكرت ، يا بؤس تلك الاماني ويا ويلها ... يا لتلك الذكر
وهبت ضميري اليك فداء لعينيك ، للحب ، للعنفوان
وكنت غرير الخيال طري المواهب ... طفل الجنان !
وكنت اغني لكل الحيارى أبلسم احزانهم بالاغاني
وامنحهم من عيوني الضياء ومن روحي السمح فيض الحنان
وهبتك بالامس مستقبلا ونبعا من الحلم ثر الاماني

تراه يظل التراب ترابا بلا دفء .. لا واحة .. لا بريق
تظل المياه تروي ثراه تبل ظماه ... ولا يستفيق
سدى ... ايها الماء تسقي التراب
لقد مات منذ زمان سحيق !

فلن ينهض العشب فوق التلال ولن يتبسم ثغر الشقيق
ولن تتهادى رفوف الفراش تحط على قطرات الرحيق

هراء تجود عليه السماء وتسقيه من دفقات المطر
أتنهض جمجمة من تراب وينبض بالخصب قلب الحجر !

هراء يظل التراب ترابا تعشش فيه زحوف الافاعي
تفح سموم الجفاف وتلتهم العشب ، تحرق خضر المراعي
تذكرت يا لعنة من جهنم يا حية في اهاب البشر
اقول انا من تراب الحياة وانت الي مياه العمر
تذكرت قصة حبي الغرير وقد لونته الرؤى بالصور
وثغرك يطعمني زيفه وثغري يعاطيك اشهى الثمر
حكايا .. من الامس يا بؤسه ويا ويله .. يا لتلك الذكر !

ويتلفت « راضي » الى المأساة التي يعيشها شعبه المشرد ، فيخاطب صغيرته « رلى » الطفلة البريئة ... ويدعوها ان تروي ثرى الارض الملتهبة ، المخضبة بالدم ، المجبولة بالدمع ، بمزن مآقيها :

صغيرتي يا موعدا في غد من الشروق.. والرؤى..والظلال
ألقاك ينبوعا يبل الصدى في رحلة خلف سراب المحال

---

١ ـ (١٨٥٣ ـ ١٩٣١) روائي انجليزي ، نشأ في جزيرة مان ودرس العمارة ، ثم زاول الصحافة ، تصور رواياته الحياة في جزيرة مان ، ويدور بعضها حول موضوعات من الانجيل ، ومنها « ظل جريمة » ١٨٨٥ و « الرجل من مان » ١٨٩٤ و « المسيحي » ١٨٩٧ و « سيد الانسان » ١٩٢١ ، وبعد وفاته ظهرت له « حياة السيد المسيح » .

نار الريح

حبيبتي بعد غياب قد عدت لاغني
اغنية اغنية تفيض بالملوحة والشرر
احمل في حنجرتي نار الريح .
وطني يا مجروح الجبين ...
اني اخجل ان اعانق
في زحمة الدماء
مباسم النساء
بينما الاطفال نــواح
والرمال في سيناء جراح ...
وثلوج القنيطرة المكلومة بكاء
حبيبتي اياك ان تعتبي
فلقد ودعت ساعات الضجر
لاعيش ساعات
قدت من جفن الالام
وسمني مــا شئت :
ضائعا... لاجئا .. نازحا
لكن وجدت طريقي
بأن أحمل في حنجرتي
نار الريح !

حلب مصطفى احمد النجار

أطل فــي عينيــك مستلهمـا   اشلاء ماض ممعن فــي الزوال
رفعتــه فــوق جبيــن الرؤى   كما يشاد الصرح فوق الرمـال
مضى مــع الريح الــى عالـم   خلف صحارى الغيب.. خلف الخيال

وكنت يــا صغيرتــي شاعــرا   يلــون الدنيــا باحلامــه
ويوقد الشمع لهــا ... عابدا   يطعمهــا اعــذب أيامــه
يمنحهــا الحــب ولا تأتلــي   ناكــرة تقلــو بايلامــه
تطفــىء عينيــه باعصارهــا   يعبــق برداهــا بانسامــه
وتقلــع البسمة عــن ثغــره   وتسكــب المــوت بانغامــه

ولى زمان الخصب ... يا ويلنا   ما عاد غير الموت ... من حولنا
نحن تياهى فــي ضمير الدنى   تاهت خطانا فــي دجى دربنـا
ترابنــا المؤود فــي غربــة   يحــن كالشــوق لايــامنــا
وموسم الخصب غــدا شاحبا   يتوق ان يونــع فــي ارضنا
جفت ينابيع المنى ... وانطوت   لا ومض في الاعين غير الضنـا

صغيرتي ... انت هنــا عالـم   مــن غيــر لــون مستباح شريــد
الشمس لا تشرق فــي ارضه   ولا يغنــي بلبــل او يعيــد
وكل معنــى خيــر ... خالــد   تموت سيمــاه ويفنى الخلود
انت هنا غريبة يــا « رلى »   بنــت غريــب مستذل شريـد

يعيش للموت ... وما من منــى   يحيا لها العمر سوى ان يعود
فخبىء الجرح ... ولا تحفلــي   فالصدر اولى ان يواري الالــم
وابتسمي ... فالحزن يا طفلتي   يطفىء فــي جنبيك نــار الحمم
واوقدي الشمعــة ان الدجــى   يضيع الدرب .. وراء الظلــم
تربتنا السمراء ... ظماى لنـا   وليس تسقيها دمــوع الالــم
هاتي دماء الجرح ... يا طفلتي   نسق ثراهــا عنفوانا ... ودم

وبعد حلول النكبة الاولى شرق « راضي » وغرب ، وغذ المسير في متاهات ودروب .. عله يتناسى جراحات قلبه ، او يسلو وطنــه المغصوب ، لكنه حاول عبثا ... بل ظل وفيا لاول ارض مس جلــده ترابها ... حنانا للشعب الذي اصطلحت عليه قوى الشر والطغيان، ذلك الشعب الذي جرعته الايام زقوما وغسلينا ، وصب عليه المستعمر الوانا من البلايا والرزايا .

وظل « راضي » ، وهو شاعر الامــة المشردة ، علــى ولائــه لفلسطين ، وعلى تذكره لها فانشأ يقول بعنوان « فلسطين ... ويهوذا الثاني » :

أنام علــى شفير الجرح مجــدولا بلا كفن
وفي عيني تخفــق اغنيات الشوق والشجـن
اسائل في متاه الارض : أين غدوت يا وطني ؟
وتصفعني الليالي السود.. حتى الليل انكرني!
أفيء اليك يا وطني فهل مــا زلت تذكرنـي ؟

أعيش مضيــع العينين ، مصلوبــا بــلا غــار
واحمل غربتــي الرقطاء مــن دار الــى دار
اغمس لحني المشبوب من جرحي ومــن عاري
وفي جنبــي تعصف اغنيات الــدم والثــار
تضيء الفجــر للدنيــا وتتركني على النــار

حملتك فــي دمي لهبــا وفــي عيني احزانــا
الــون منــك ايامــي احيــل الصخر بستانــا
واطفىء لهفة الاشواق ، ثــم تزيــد نيرانــا
فانت لظى عَــلى كبدي تصب النــار الوانــا
تظل بخاطري جرحــا سنحــي النزف ريانــا

يقال غــدا تطــل الشمس فــي آفاقنا العمياء
وتشرق في مرابعنا وتغسل عتمــة الظلمــاء
وتفرش فــي مجالي الارض درب العودة الشماء
يقال غدا .. وأين غدا ؟ واين الشمس والاضواء
لقــد عشيت محاجرنا واعمت نورهــا الانواء

تكلم يــا ضمير الارض ، هل مــن عالم حان ؟
أتذبح شعبنــا حمــلا فــداء المجرم العانــي ؟
وتنفض كفك الرقطاء مــن آثام اوطانــي ؟
وتحمل غصن زيتون ، وانت القاتــل الجاني !
أتنكر ؟ كيف تنكر يــا يهوذا العالــم الثاني ؟

غــدا يــا روعة البركان ، سوف نطــل بركانا
نخض العالــم الملعون ، تحرقــه شظايانــا
ونوقظ ، يــا ضمير الارض ، شعبا كان جوعانا
وسوف يطــل تاريخا واقدارا ... ونيرانــا
ويبدع للورى فجرا نقي الوهج ... انسانا !

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

مشهد من مسرحية زنوبيا

* * *

كليكرتاس :

رأيت شيئاً عجيباً — يضيق عنه بياني
ما للمليكة أمست — فريسة الاشجان
تبدي وقاراً وتخفي — مرارة الاحزان
في صمتها راح شجو — يحكي بغير لسان
يا رب صمت تجلى — به طريف البيان

لونجين :

اشقى البرية في الورى — من راح يبني للفناء
ما كان في سفك الدماء — ولا الضراوة من غناء
فالفتح يطوي كالهباء — وكل فتح للهباء
والفاتحون دمى تحركها — المطامع بازدراء
يتنازعون على الفناء — بكل اسباب الفناء
يشقون عمرهم ولا — يجنون غير مرير داء
بنيانهم زيف تلطخ — بالدموع وبالدماء
لكن ما تبني القرائح — مشمخر للسماء

كليكرتاس :

لا تقل في ذم الحروب — ولا تضيق ذرعاً بحرب
بالصعب تمتحن الكرام — ولا ينوء فتى بصعب
لولا الشدائد لم يكن — للنصر اكبار بقلب
لا ترث للدم ان هريق — بسفح أودية وهضب
فالمجد يشرق بالدم — المسفوح في زهو وعجب
والعمر حرب دائم — في كل منعطف ودرب
الموت اخلاد النفوس — الى السكون لدفع حرب
ما مات من عرف الطريق — ولم يضق ذرعاً بصعب
ان الحضارة ثورة — خلاقة جادت بسكب
أوليس تاريخ الشعوب — ملاحماً شطرت بعضب

دمشق — عدنان مردم بك

انت جبان : حدقت في عينيه العسليتين، ثم تناولت عود الكبريت وراحت تنظف به اسنانها . انها فقط تتسلى بنكشها عندما تفكر بعمق ولذة . لقد تعودت على التفكير العالي وهو امامها تراقبه وهو يغتسل ويلبس ، تناقشه وهو يأكل ويتهيأ للخروج . دائما وراءه وراءه عندما يكون في راسها شيء . انها تحبه هذا صحيح ، وهي تخاف عليه لا مجال للنقاش ولكن لا من النساء بل من ذاتها ... هل يدرك ذلك يا ترى .؟

كان هذا الصباح يمشط شعره وهو محني الظهر ، يلتفت اليها ليسكتها فتشتبك عيناه بعينيها في نظرة تحد . انه يشعر بملاحقتها له فيعذبها ببروده وتجاهله .

« انا جبان فليكن » هز كتفيه واتجه نحو الباب .

اسرعت خلفه كالقطة الشرسة « وتتهرب لانك خائف » .

« خائف ؟ فكر قليلا » مما اخاف ما دام لي بيت » .

غيرت وجهة الحديث ...

كم بيتنا جميل.. لقد ذكرتني اريد مكنسة كهربائية »

« وهل بدأت الطلبات ، ان من يسمعك يعتقد بانك زوجة مدللة ».

« انها السجادة » .

« اعرف السجادة كبيرة وتنهك قواك وينحشر الغبار في عينيك وفتحتي انفك العصبي الدقيق ... دائما هكذا اريد واريد ، كيف عاشت امك ايام زمان وكان لها تسعة اطفال وتتأوهين من عذاب طفلين وبيت صغير فيه كل راحتك ... عندك بوتوغاز ، غسالة ، عصارة ، طحانة ، سخانة ، ولماذا تظنين انني اعيش ؟ اليس من اجلك ، ومن اجل راحتك ؟ »

« اعرف انك مثالي واني سخيفة، ان غيري يتزوج من اصلع سمين ذي كرش مستدير مقابل كل هذه الراحة » . طبعت على فمه قبلة حارة وهي تودعه . « ثم لا تعتقد انني غبية فلا اقدر كل ذلك، الى اللقاء » .

دخلت البيت بهدوء واقفلت الباب .

في المساء حضنها لانه يحبها ايضا ولانها متماوجة كصحون اللبن في حقول فلسطين ينعكس الفضاء في عينيها فتتضاحك وتنطلق خلفها فتنزلق البسمات في وجوده وحنجرته البائسة . انه لاجيء ، يهرب في حركة دائرية ، لا وطن له او بيت ، يبحث عن لقمة العيش في ركن هادىء يضمد فيه جراحه .

انه يتسلق الاربعين الان ويشعر بان مهمته انتهت ، ومتى كان له



بقلم الانسة رجاء ابو غزالة

مهمة الا الهروب ، وكيف بامكانه التحرك ما دامت البطولات فردية يائسة لا تنبت اعشابا .

لقد حارب وهو صغير ، اجل فهو يذكر كيف ترأس لجنة مكافحة الامية في يافا فكان يعلم البقال واللحام والفران . وكانوا بدورهم يكرمونه فينادونه يا بيك او يا استاذ . وكان يضحك بخبث وهو يضع يده في جيبه هاما بالدفع ، فيصرخ احدهم « فضلك علينا كثير يا استاذ » ويعود الى البيت محملا بالوان الخضار واللحم والخبز



الطازجة وقد شد قامته الصغيرة وتحسس شاربه الهزيل وهو ما زال في طور النمو ... لقد كان آنذاك في الرابعة عشرة .. لقد حارب ايضا في ميادين اخرى ، حارب في الشوارع ، فجر قنابل مولوتوف ، وزع المناشير والكتب وهرب السلاح . وقبل الكارثة بشهور كان يقطع شوارع المستعمرات اليهودية بدراجته يشم رائحة فلسطين ويودعها ... كان يدرك ببصيرة الواعي ان هناك مؤامرة لقتل فلسطين . وقد اكتشف ذات يوم بعيون ملؤها الدهشة ان هناك بقة كبيرة تمتص دماء الابرياء وتعطي طريقا للقمل كي يتسرب وينشىء مستعمرات في ارضه الحبيبة . كان يهرش رأسه بشراسة عندما يتذكر ذلك فتدمي اصابعه ويصاب بالجنون .

انه لا يملك ثمن الصابون والمطهرات كي يبيد تلك الحشرات اللعينة ، انه في جحيم ..

وكانت الكارثة ، فهاجروا بالالوف كقطيع الماعز فوق الجرود القاحلة وتشتت القطيع هنا وهناك بحثا عن المرعى ... تنفس بصعوبة وهو يتأوه . مدت يدها الى شعره تؤاسيه .

« انك تتألم كلما تذكرت »

« لانني اشعر بالقذارة في دمي »

« يجب ان تنسى لتعيش »..

« انني كمن يدفن القيح والورم في رأسه » .

« ولكننا نعيش ولنا اطفال » ..

« وبلا كرامة ، يطردونني متى شاءوا » .

« انك تدفع الضريبة » .

« ضريبة غالية . خمسة اضعاف ما يدفعه المواطن لانني غريب ولاجيء وليس لي وطن او حق الكلمة » .

هذا ما يشعر به في المساء ، لكن سرعان ما يتبدل في كل صباح . عندما يستيقظ ويتحسس الاشياء

ينقلب غضبه الى هدوء بارد وصراع مر من اجل اللقمة والحياة . ينسى تلك الآلام ويغلفها بالسولفان فتبقى جروحه في قوقعتها متخدرة ، يبطىء النور فاعليتها ، فتنكمش وتذوب .

كانت عكسه تماما فمع اشراقة الصباح تتفتح آلامها وتثور ، ومع المساء تذوي وتفضل النوم في حضن الطمأنينة والهدوء . تفكر وهي تطبخ وتكنس وتنشر الغسيل.

تفكر كي تنسى فيعوم تفكيرها ويفيض ... لهذا تناقشه وهو يتهيأ للخروج . انه لا يريد مناقشتها لديه ما يشغله . اتهمته بالتشاؤم والهروب ، فهو لا يندب الا في الليل بينما لم يخلق الليل الا للحب . ثم انها واقعية تطرح مشاكلها على ضوء النهار لا في عتمة الظلمات .

لكن الحرب التي انتظرتها الالوف قامت ولم تقعد فحضنها وحضنته وتطلعا معا في اعماقهما بتشاؤم .. انه يعرف وهي تعرف بان الخوف مشترك والفشل ممكن ولم يبك الزوجان لانه لم يكن في الجو ما يثير ...

طرحت عليه فكرة هائلة ...

لماذا لا يقومان بحركة فدائية تحقق ما لم تحققه الحروب ...

فعرض عليها بان تكون له كسكرتيرة . حك رأسه بحثا عن الافكار ، عن المال ، عن السلاح ، عن وسيلة للدعاية وانتهيا اخيرا في دوامة لا حدود لها . لكنه لم ييأس وقال لها مداعبا :

« لن اضحي لانه لا يوجد هناك مبرر للتضحية » .

« لقد عدت الى جنبك...»

« انني واقعي لقد ضحى غيري بلا فائدة . ثم انه ليس هناك حركة يعتمد الفرد عليها ليطمئن بان ابناءه لن يموتوا من الجوع » .

« وهل تعتقد بانك الوحيد الذي يفكر ويتألم ، ولا يجد الحل ؟ »

ها هو العيد يطل فتذكرت طفولتها ، حذاءها البني تحت الوسادة وفستانها الاوركندي يسبح فوق الكرسي كالفراشة ... فلسطين هي حلم طفولتها الهنية ، ولكن فلسطين ذهبت كلها ولم يبق العطر الا للمقابر المطلية بالبياض .

« هل ستأتي بخاروف العيد ؟ »

« ولم لا »

« لكن اهلك وعائلتي لا يأكلون »

« الم نذهب الى البحر يوم ٥ حزيران ؟ »

« اجل ولكننا كنا نمضغ الاحلام، لربما اصابنا الجنون من يدري »

« وسنحلم ايضا ونحن نلتهم الخاروف »

« انك سادي »

« بل انا انسان عادي يستمتع بوقته ، ليذهب الكل الى الجحيم .»

« لقد افقدك الالم انسانيتك . »

« وما هي الانسانية في عالم تحكمه اللقمة والقوة . اريد ان اعيش فقط ... »

وتتحرك عنه في حركة شبه جنائزية « لدي فكرة « تنتفض كالشبح » سنؤجل سفرنا ربما ربحنا فيما بعد » .

« لقد اصبح النصر لدي سيان . سننتصر في الجحيم . ثم ماذا بقي لي من سنين اعيشها ، عشرون ساتمتع بها » .

« وان اجبروك على الانضمام الى جيش ما » ..

« لن اذهب » .

« من اجل فلسطين » .

« اصبحت لا اؤمن باحد ، لقد سئمت التهريج ، اننا جهلة » .

« وان وجدت المنظمة التي تحقق التحرير » .

« سأكون اول من ينضم لها » ..

ها ها « ستهرب » .

« كلا سالتحق بها »

« وتترك بيتك واطفالك الى المعركة ؟ »

« سافعل » .

« انت مجنون ، وانا ؟ »

« احبك ولا استطيع فراقك » .

« وكيف ستذهب اذن » .

« سنذهب معا » .

« وسنموت » .

« الم نكتف من كل شيء» .

« ولكن البيت ، السجادة والمكنسة الكهربائية وسفرنا الى لندن » .

« سنذهب الى لندن » .

« وكيف » .

« لنلقي الاهانات ونعود اكثر وعيا وقوة » .

« وهل سيهجمون عليك في الشوارع والطرقات ليقولوا لك بانك عربي قذر » .

« كلا بل سنتحاشى الاماكن الغاصة بالعيون الكبيرة المتسائلة والتعليقات اللاذعة »

« ولكنهم لن يتبينوا شكلنا لانه لا يدل على انه عربي » .

« سنتكلم العربية » .

« بل تتكلم الانجليزية وكفى » .

« ما فائدة ذهابنا ما دمنا سنختفي كاللصوص كي لا يعرفوا هويتنا ، كيف سنتمتع بالمغامرة ونحن بلا كرامة ، كيف سأزدرد اللقمة الساخنة والعيون تبحلق بي : انك عربي تنتمي الى امة مهزومة » .

« لن نذهب اذن » .

« بل سنذهب » حملقت به بشرود ... انه رائع وليس جبانا كم تحبه ، قبلته وهي صامتة .

وبعد ايام قذفت باحدى المجلات فوق الطاولة « ها هي اخبارهم » .

« اخبار من ، دعيني آكل اولا »

« بل ستقرأ عن المنظمة التي كنا نحلم بها » .

« ومن هي يا ترى » .

« لقد بدأنا بالجد » .

« ولكنها كباقي الحركات ، جعجعة ، كلام ، فقاقيع » .

« ان الصحف العالمية الكبرى كالتايمز تورد اخبارها » .

« ها ، هل يعني هذا انها بدات بغسل القاذورات » .

« كل يوم » ضحكت بعصبية « في كل يوم لها عمليات فدائية بطولية في الارض المحتلة » .

« ومن هم الفدائيون فيهم ، السمكري والحداد والنجار والفلاح ؟ »

عقدت بين حاجبيها وتطلعت اليه بغضب .

« هل تعلم ، من الغباء ان تدع هؤلاء الطيبين لوحدهم يضحون في سبيلنا » . .

« اوه ... مثل هذه الحركة يلزمها مستوى عال » .

« انت دائما تبحث عن المبررات لتدعم بها هروبك الطويل ».

« انا مسرور هكذا ليضحي هؤلاء بارواحهم » .

« وما بال هؤلاء ... انهم المجتمع والمجتمع يضم كل الطبقات والواجب محتم على كل الطبقات ان تساهم في حربها التحررية » .

لكنه مشغول .. راسه يدور والميزانيات تدور .. عليه ان يسرع بالعمل قبل سفره والا سيغوص الى عنقه في حسابات لا اول لها ولا آخر .

كلما حدثته عن تطورات الاحداث قلب شفتيه وحضنها بذراعيه انه لا يحبها عندما تجادل وتناقش ، تتشبه بالرجال وتقضم الكتب كالفئران، تحرق الملفات كالساحرة، تمضغها وتبتلعها يا الهي ... انها تحدق به من خلف النظارات لتوصمه بالاتكالية ، انها لا تكتفي بشيء .

وتظل تطالب وتطالبه وكأنه لم يخلق الا لها .. ولكنه لها يعيش ويموت من اجلها هذا ما يغيظه خصوصا وانها ليست كباقي النساء .. وهو ليس كباقي الرجال ..

ويحني راسه يائسا ويتمناها لو تكون غبية ليتناقشا في الغباء وحسناته .. لكنها صنف آخر من المطاط تتشاءب همومه تمتد كلما احتك بها . فهو ان اراد الهروب فسيهرب منها لينجو بجلده لانها كالسوط بلسانها الثرثار وكالزهرة الندية بنظراتها البريئة الحالمة . المصيبة انها تذكره بارضه ، باحلامه . انها قطعة منه ولا يستطيع الهروب منها .

في اليوم المحدد للسفر انطلقا من الصحراء التي يعمرونها الى بيروت .

وفي بيروت ترددت « سنقضي الاجازة هنا » .

« ولماذا هنا بالذات ».

« سنشعر بالغربة هناك » .

« ما بالك تجبنين وهل اصبحت تخافين من الاحتكاك بالاشياء » .

« ومتى هجمت عليك الشجاعة »

« لقد سئمت الخيال والجزازير»

« وتريد الان ان تتحقق منها ، ان تحتك بالضبع ليقشعر بدنك وتصاب بالغيبوبة » .

لم تكن الاجازة سيئة كما كانت تتوقع ، ففي دائرة الجوازات في لندن تفحصها الموظف ثم هز راسه وقال وهو يناولها الجوازين « انتما اصحاب للعرب ... ! »

ظلت طوال الطريق من المطار الى المدينة وهي تقلب الكلمات وتنكش في زواياها . ماذا كان يقصد ... ان هؤلاء الانجليز لا تعبير على وجوههم ، انهم اشبه بغطاء طنجرة يغلي السم في قاعها .

لكن ما بالها تنتفض من نسمة الهواء، وزوجها آه من زوجها انه يجري كالكلب المسعور يشم الطرقات ، المنحنيات بحثا عن الالغاز والاوهام . اذا ما لمست كتفه اهتز كورقة التين ثم هدأ فاقد الحس بكل جميل حوله .

انه مجنون يبحث عن لص يتوهم بانه يراه تحت ضوء القمر ، اذا ما لحق به وكاد يمسك به كبرهان أفلت منه واختبأ في المزراب .

وفي اليوم الاخير هزته من كتفيه « انها الفكرة » .

« الفكرة » قلب شفتيه « اقذفي بافكارك من الشباك » .

« اوه انك لا تكبر ابدا » .

حدق في عينيها ...

« انك تعيش في معركة الاوهام » .

« وهل عذابي اوهام ايتها الفيلسوفة » .

« زوغان عينيك يدل على ذلك . ثم انك الان وسط المعمعة . اننا في حلم فظيع يحاربنا العالم لاننا ضعفاء . انظر كيف تتسلل الجراثيم الى مشاعرك وعقلك وافكارك لتشل حركتك ، انك لا تعرف من اين تبدأ . ان اعداءنا ينظرون الينا بدهشة لاننا نتألم ولا نتحرك فيمسخون المنا لانه ليس جديرا بالاحترام . التحرك هو الحياة اذن فنحن اموات في نظرهم ويجب ان نظل امواتا .

الفكرة ليست في نظرتهم الجائرة لنا بل في مدى قوتنا نحن لمجابهتهم . اننا الان كالفئران في المصيدة نتخبط في الاوهام ، نلهث ونفور ثم نهدأ » .

« معنى ذلك اننا لا نعرف سبيلا للخلاص » .

« بل السبيل موجود، سنحاربهم على طريقتنا الخاصة » .

« وهل لديك سلاح ذري » .

« اجل ، الحرب الشعبية . لقد برهنت على انها الاقوى والافضل في كل مكان في العالم . سنلتحق بالمنظمات الفدائية » .

« وراحة بيتك واحلامك » .

« انها راحة كاذبة ثم ان الروتين مشكلة والعادة موت بطيء » .

« معنى ذلك ؟ »

« ان نغامر ماذا تقول » .

« هيا الى العمل الجدي فلي مكاني .. ولك مكانك .. فقد شبعنا احلاما وثرثرة وفقدت الكلمات معانيها » ...

جدة **رجاء أبو غزالة**

الاعشاش الهانئة في ظلال الحب

بقلم الفقيد مصطفى درويش الدباغ

* * *

اطهر الحب وانقاه هو الحب الزوجي ، ففي ظلاله ونعومة دفئه ينقلب البيت روضة فينانة ، تشرق نضارته ويبدو على محياه ، وفي كل ركن من اركانه ظلال السعادة والهناء ، ما دام الزوجان ينعمان بالحب ويضحي كل منهما في سبيل سعادة الاخر . والبيت الهانيء السعيد من ابتكار وابتداع الحب ، تلك القوة السحرية تلمس بريشتها الارض اليباب فتتحول فردوسا ريانا ينضر بالخصوبة والنماء ، وتمس القلوب الظماء فما يلبث الظمأ ان ينقلب ريا ، وتمسح على قلوب اليائسين فينقلب اليأس املا . .

واذا اردت ، ان تتعرف الى جهنم وتبلو مقاماتها ودرجاتها ، وتخبر مقدار ما يناله من العذاب والالام ساكنوها ، كما جاء تفصيله في الكتب السماوية ، وكما دونته عبقرية « دانتي » في جحيمه ، فما عليك الا ان تقرأ القصص ، الذي يصور العذاب والالام ، يلذع بحرارته قلوب وعقول اولئك الذين اقفرت مساكنهم من الحب والطهارة والتسامح ، وعاشوا في جو فسيح من الالام المحرقة تطوف عليهم نهارا ، ويطغى لهيبها عليهم ليلا ، كما تطغى السنة النار المشبوبة على ما تلمسه في طريقها متدرجة ظامئة تلتهم ما اخضر وما يبس ، تلتهمه بنهم وضراوة وتمضغه في ظمأ وحرقة اشباعا لطبيعة الهدم والتخريب . . او عليك ان تصيخ بأذنيك وبكل مشاعرك الى ما يقصه عليك الاصدقاء ، عن حالات البيوت التعيسة ، وما يتذوقه اصحابها من الوان التعاسة والشقاء ، بسبب فقدان الحب وسيطرة الكره والانانية على نفس الزوجين ، واثر ذلك العذاب اللافح على نفسية الاطفال ، وما يجره عليهم الكره من مرارة تتسرب الى حنايا نفوسهم البريئة ، فينشأون على الكره والعناد والتمرد واليأس ، لان طبيعة الاطفال كالعجين اللين المرن اللدن يتشكل حسب ارادة من يعركه ويطويه ويلينه على اشكال ونسب مختلفة . وان للكره والمقت والتمرد والانانية طبائع وصفات آسرة ، تصقل النفوس اللينة الفريرة اشكالا والوانا تنبض بالكره والانانية وتطبعها على غرارها .

يدفعنا البيت الذي يسيطر الحب على كل ذرة من ذراته ، الى تقديسه ، واحترامه ، والنفس شغوفة بالحب والحرية والعالم محبة ، وطبيعة الحياة في الحيوان والنبات والجماد تنعم بالحب ، لانه سر الحياة ، ولو اقفرت الحياة من الحب لاصبحت تافهة لا معنى لها . نقدس هذا المسكن لانه يعيش في ظلال تلك الروح الاسرة الخصيبة المليئة بالحيوية والازدهار ، ولانه يقدس معنى الحياة الاصيل ، ولم يشذ عن دستورها ، ونكره المسكن الذي يسيطر عليه الكره ، بجميع انواعه ، لان أصحابه تمردوا على معنى الحياة ، وابوا على الروح التي تخلق فتنة الحياة ولذتها ان تخفق في ارضهم والتمسوا روح الخراب ، ليعيث في ارضهم ومسكنهم فساده ، يستمطرون الكره على حياة الصفاء ، الكره العابث الهدام ، الكره الذي يحيل الروضة الفناء احطابا وجزوعا لا حياة فيها ولا نماء ، ويحيل الربيع خريفا يتسم بالكآبة والوجوم .

لقد احب بول جيرالدي الشاعر الفرنسي زوجته ، وصور هذا الحب في ديوانه « انت وانا » ، احب نفسها ، واحبها فتنة جسد وخفقة روح ، احبها في حديثها ومنطقها وفكرها ، وفي رثيث ثيابها وجديدها ، في وحدتها وسكونها ، احبها في المجتمعات رقيقة جذابة محدثة ، تنفح المجالس بعطر حديثها ، احبها تتألق في البيت روحا قويا جذابا ، تضفي من روحها وجاذبيتها القا فاتنا رائعا ، نظيفة طرية ناعمة ، تجمعهما فكرة واحدة وهدف واحد ، يتأملها في مجالي الطبيعة فيزداد بها فتنة ، احبها في بؤسه وفي نعيمه ، فلم يقلل البؤس من حبه ، بل زاده البؤس حبا وما اروع ما جادت به شاعريته ، في تلك الرائعة :

في كل يوم منك شكل   تبعثين به حنيني
أتقنت فن السحر ، حتى   صار كحلا في جفوني
فاذا رايتك كل يوم   لم اجد غير الفتون

وما اجمل قوله حين استعرض صوره مع زوجته يقول :

لا تظني ان في هذي الصور   ما يواسي النفس ، أو يغري النظر
هي تاريخ لماضينا ، كما   قلت ، الا انه عافي الاثر
والذي احمل ، في ذاكرتي   هو أبقى منه معنى ، وخبر(1)

والرائعة كلها تحمل مثل هذه الالوان الشعرية ، انها قلم حي يمثل حبه في شبابه وكهولته ، واذا كان « جيرالدي » احب زوجته ، فان الشاعر العربي عبد الرحمن صدقي احب قرينته كسابقه ، وعاش حياة هانئة بظلالها الحب ، ولكنها انقلبت جحيما حين سطا الموت على عشهما الهانيء القرير ، واختطف قرينته وهي في طراوة الصبا ، وسالت نفسه شعرا سجله في ديوانه « وحي المراة » صور اثر الفجيعة ، وحسرته على حياة قضاها مع قرينته هانئا ، صور كل هذا بدقة وحسن عرض ، تحس نفسه الملتهبة في كل قصيدة من قصائد الديوان ، تلمس الانات المشجية ولوعة الهجران الابدي .

وما اصدقه في وفائه ، حين يتذكرها وهو بين

---

(1) ديوان « انت وانا » لبول جيرالدي نقله الى العربية شعرا الفقيد الشاعر الخطيب الدكتور نقولا فياض وصدر في منشورات عويدات ببيروت .

البطل الثائر

دعـــاه الموطن الغـالي فلبـاه وحيـــاه
وقال فديت يا وطني انا من انت ترضـاه
سأجعل منك للطغيـان قبرا فيــه مـأواه
وارضـا تنفث النــيران لا تنفك تغشاه
ويومـــا اسود الانحاء مرا ليس ينسـاه
فاحرمـــه هناء العيش في أمن تمنـاه
الى ان ينجـلي عنا ويأتي الحق مأتـــاه

وسار يحقق الآمال ذاك الثــائر البطـل
ولا يرضيه الا الجـــد والاخلاص والعمل
وعين اللـــه ترقبـه وشعب كله أمـــل
لقد قاسى من الاحداث جرحا ليس يندمل
فصاح فاسمع الدنياواصغى السهل والجبل
بلادي حرة عاشت ولا عاش الفتى الوكـل
وباء الغاصب الغدار يعصر قلبـــه الفشل

وأقـدم غير هياب به الارزاء تنقشـــع
ألم تـــره وفي يده شهاب المــوت يرتفع
ومدفعه يعانقه كمـــا الاقدار ينـدفـع
وقنبـــلة يفجـرهـا والغـــام لها تبع

فيـــأتي الغدر يمطره جحيما ليس ينقطع
يـــدك له معاقلـــه فلا يبقي ولا يـــدع
ويسحقـــه بمعترك به الآجال تصطـــرع

فبات عدوه يقـضي سواد الليـل في أرق
كمن في مركب فيالبحر لم يامن من الغرق
وفي الاصباح لا ينجو منالاخطار في الطرق
ومن ليث فــدائي يبـــاغته بمفـــترق
فيسقيـه الردى مرا مزيج الحقد والحنق
فدب الرعب في دمهم دبيبالسم في المرق
وصار شعار صهيون شعار الخوف والقلق

الا حييت يا من قد ركبت الصعب جذلانا
ورحت تقارع العـــدوان كالآساد حردانا
رعـاك الله أمطرهـــم من النيران بركانـا
واكثر فيـــهم قتــلا وتنكيــلا واثخـــانا
ولا تترك لهـــم اثرا بارضك اينما كـــانا
فهم رجس يدنسهـــا وهم شر تحـدانـا
وما للشر الا الشـــر يمحـو منه اركـانـا

حلب — محي الدين الحاج عيسى

الرياض والفياض ، ويلتفت ولا يراها معه ، تتملى مـــن مشاهد الطبيعة كمـــا يتملى ، وما اروع شعوره حين تدلف به خطاه الى النيل ، باكيا يذرف دموعه فوق امواجه ، فهو مبكاه ، التقى نظيم اشجانه بنظيم اشجـــــان « ايزيس » ملكة مصر تذرف الدمع سخينا حارا حزنا على وفاة زوجها يقول في قصيدة حيرة :

أأهرب من ذكراك، املست اهرب — وهل من وفاء ، ان يجن المعذب
أأترك هذا البيت ، قد كانعشنا — وكنا به الالفين، والارض معشب

الى ان يقول :

خيالك يا زوجي، كظلي، انأسر — وان أبق ، تمثال امامي منصب
خيالك : لا اقوى عليه، فانـــه — وقد صار جزءا ، من حياتيمغلب
الى اينأمضي، عنك،لااينزوجتي — فمالي غير الموت، بعدك مذهـب

هذا هو الحب الطاهر النقي تفرضه طبيعة الحياة والدين على الزوجين ، فتتألق به الحياة وتنضر فــــي عينيهما ، وليس هو بالحب الفاسد ، يفسد الحيـــاة على العاشقين لتملصهما من قيود الدين والاجتماع ، وحبذا لو يقرأ المثقفون المتزوجون ديوان هذين الشاعرين ، ليلتمسوا حياة الطهر والنقاء تتخايــل في كــل قصيدة وفي كـــل مقطوعة .

عمان ــ الاردن — مصطفى درويش الدباغ



أنفــاس الربيــع

مجموعة شعرية ـ راشد الزبير السنوسي ـ (؟) صفحة ـ طبع في ليبيا

نفحة من شاعر تثيره اللفتة والبسمة واللحظة ، فلا يكاد يخلو الى نفسه حتى تستحيل اللفتات والبسمات واللحظات قصائد ومقطوعات تصور الوجد والحب والجمال ..

ولا يكاد القارىء يقرأ هذه المقطوعات حتى ينتقل مع الشاعر الى عوالم من الرؤى الحالمة لشد ما تحسه النفوس الظامئة الى كل ما تفيض به مواكب الوجد والحب والجمال .

وصاحب « أنفاس الربيع » قد نفح العربية بثلاثة دواوين هي صور من احاسيسه الوجدية وهواجسه القومية .. وهو في كلتا الظاهرتين صادق التعبير عن نبضات حسه وهواجس قومه . لقد عشت معه لحظات حلوة ناعمة في فترة كنت فيها شبه قلق .

وما من انسان في هذه الايام الا ويعيش في جحيم من القلق ، ولا يجد مجالا من تبديده الا بالانصراف الى جو موسيقي حالم او الى واحة مخضوضرة من الشعر العاطفي .

وقد انقذت نفسي من سجوف الشكوك بقضاء فترات حلوة مع الشاعر في ديوانه ، وهو ديوان صغير الحجم ، انيق الطبع ، يستطيع القارىء ان يلتهمه في اقل من ساعة .. ولكن لا .. انك تظلم الشاعر اذا مررت بروضته هذا المرور السريع دون ان تقف متأملا ما في روضته من مفاتن الطبيعة وعبق الازهار ..

واخذت اقرأ واقرأ .. واذا بي مع شاعر وافر الاحساس ، يثيرك شعره فتشعر شعوره وتحس بنشوة حلوة حين يصف ذاته ومعابثاته.. شانك مع شعره شأن انسان مغرم بالجمال لا يكاد يتأمل جمال الزهرة او جمال دمية فنية او صبية حسناء حتى يقف مذهولا .. وقد يطيل الوقوف !

وقد عاودت قراءة اكثر من قطعة من هذا الديوان الذي تترقرق على صفحاته نسمات حلوة من ازهار الربيع .. من ورده وزنبقه ونرجسه متمثلا في جمال المرأة التي هي الورد والزنبق والنرجس في امتع ايام الربيع الضاحك .

وكأني بالقارىء الكريم يقول لم لا تشركنا بما استمتعت به .. ولا احب ان أضن عليه بهذا الذي استمتعت به ، وقد سجل شاعرنا الليبي الاستاذ راشد الزبير السنوسي الكثير من عواطفه الذاتية فكان اقرب في هذا التصوير الى الشعراء العذريين الذين اضناهم الحب واثارهم الوجد وامضهم الفراق ..

وللقارىء ان يتلمس جمال هذه المقطوعة حين يودع الشاعر من استبدت بقلبه :

اراحلة ؟ يا لهذا العذاب   يطول بليلي وما تعلمين
أسائرة دون همس الوداع   ودون انطلاقة حب دفين
الى أين ؟ والحزن يضوي النفوس   أما تسمعين ؟ اما ترحمين ؟
سيفتقد الدرب ما عودته   عليه الخطى من لذيذ اللحون
وتساءل منعطفات الطريق   ومن لاذ في صمته لا يبين
بماذا أجيب ولا من يجيب   فقد هام فكري مع الراحلين
ثلاث مضين أخوض الضياع   وحيدا بلا سند او معين

لقد طال ليله ، واضوى الحزن جسمه ، ولعبت في نفسه الظنون .. وسرعان ما يبدد هذه الظنون بالتطلع الى الافق عله يرى ملاكه على غيمة من فنون تحوطها وتسقيها قطرات من غمام يضوع منها عبق الفل والياسمين ، هذا العبق من ذكرى اثيرته هو الذي يعيد له الحياة ..

وحين يعبر الشاعر عن مواجيده واشواقه يعبر عن الكثير من القلوب الهائمة بحب الجمال والمحترقة بنيران الوجد ووهج الحب ..

الشاعر الذي عاش فترات طويلة في جحيم النضال مع الكثيرين من شباب ليبيا ـ كان يجد في لحظات الاستجمام ، هذه السوانح التي يرسم فيها شعوره المتقد :

لعينيك اغزل ضوء القمر   واهدي الندامى رفيف الزهر
واصنع من نجمه كأس عطر   بحافاته يستحم السحر
وارشف من وردة ريقها   لانعش في الصدر حلما خطر
وأرحل في نسمة عطرتها   طيوف المساء لاروي النظر
الون من شفتيك الحياة   ويرسم شعري بديع الصور

من حديث الى « سمراء » عذبة الصوت ـ وللسمراوات نصيبهن الوافر من شعره ـ :

سمراء وصوتك ما اجمل
كخرير مياه في جدول
كهتاف الطير اذا اقبل
يشدو برقيق الالحان

الى التي غنت شعره فاطربته :

من انت بالله من انت   صيرتني نغما وابدعت
حلقت بي في نشوة سكرى   لله ما احلاك اذ لحت

الى كلمات عابثة لحسناء سئلت من يكون هذا الذي يرسل هذه النفحات :

سالوها عن ناسج الحرف من شوق محب ، ومن تأوه ساهر
فأجابت ولحظها يرسم الافق فتونا تسبي العيون النواظر
آه من نسجه .. وما ويح قلب شب فيه الهوى وهام الشاعر

الى حديثه مع « رجاء » وهي قطعة غنائية من اروع ما فاض به قلب الشاعر :

كل يوم مر بي دون لقاء   او حديث هو للروح عزاء
ضائع ليس من العمر وما   قيمة العمر اذا غابت « رجاء »
هي نجوى القلب في خلوته   جنة تمرح انسام المساء
هي انشودة طير سابح   يحمل النشوة في كل سماء .

ان انجذاب الشاعر الى واحات الوجد والحب والجمال لم يبعده عن تصوير شعوره القومي المتقد ..، من العوالم السحرية الى عالم النضال والكفاح ، ومن تصوير احاسيسه الذاتية الى تصوير اروع لاحاسيس قومه الذين عاشوا ادق مرحلة من تاريخهم النضالي . ويخص فلسطين ، ويخص الفدائيين ، ويخص المناضلين في كل قطر عربي وقف ابناؤه يناضلون الغزو والعدوان ، والصهيونية والاستعمار .. يخصهم باجمل تحية واعظم تقديس ..

وهنا يرتفع صوته ليعبر عن كل هذه الخلجات القومية والنزعات الثورية .. ففي تحيته لفدائيي « العاصفة » يقول :

كان الجميع ينكرون ثورتك   ويهزأون ان رويت قصتك

فاعذرهم فانهم تعودوا — على الذين شوهوا بطولتك
تحية .. وقد حفظت قصتك — مجدولة الاحرف بالضياء
زكية من أرج الدماء
تسابق الشعاع للسماء

فانت فجر جيلنا ورائد لامتك
حررتها من ربقة الضياع
انقذتها بعزمك الشجاع

وفي تحيته لمصر أشار الى ما يحيكه الاستعمار من دسائس للفت بين العرب وتفريق شملهم :

يا مصر : مر على الاخوة عارض — فاذا الشقيق من الشقيق ينفر
خدع اراد بها الوشاة مطالبا — حتى يفرق شملنا المستعمر
ولنا على الايام اكبر حجة — صلة العروبة والوداد الاكبر
ووشائج شد الجوار وثاقها — وعقيدة رسخت فما تتكسر

والشاعر لا يكاد يذكر محنة ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ حتى تثور ثائرته فيرسم صوراً للوحدة الحقيقية التي تجمع شمل العرب :

كنا نردد « وحدة عربية » — بعواطف تلهو ولا تتدبر
والشعب منخدع يظل حياته — فيما يقال وما يذاع وينشر
الوحدة : الاحساس في اعماقنا — الوحدة : العمل الدؤوب المثمر
الوحدة : الاخلاص ليس يشوبه — غل يكدر صفوه ويغير
اني لالمحها على درب « الفدى » — في فتية « الفتح » الاباة تثور
الواهبين حياتهم بشجاعة — للفجر يجتاح الظلام ويقهر

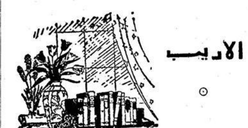
وروح الشاعر الثائر ترتسم كلمات من الوهج حروفها الصدق والايمان .. فهو يخاطب الانسان العربي الذي عاش فترات ذهول بعد النكسة ـ يخاطبه بلسان الثائر الذي يهزأ بسلاح الخطب والكلام .. فالامر من الهول لا يحتاج الى الخطب الحماسية .. بل الى ثورات دامية تطهر ارض فلسطين من رجس الصهاينة :

ماذا يفيد
ومرارة الخذلان تعتصر الوريد
وحرارة الكلمات اخمدها الجليد
والنائمون صراخهم ملأ الصعيد — والامر ليس به جديد
ماذا يفيد
وكاتما المأساة لم تفع الديار
وتلطخ الشرف المؤثل بالصغار
وتشتت الفلذات في وضح النهار — وليس نبدأ او نعيد
والثار لا ينقاد الا للكفاح
فاذا صدقنا العزم والتمع السلاح — سقط الشهيد على الشهيد
يتدافعونَ على الخلود ..

اني اقف هنا ، وقد مررت مروراً سريعا ببعض القصائد والمقطوعات التي احتواها ديوان الاستاذ السنوسي الذي يتميز شعره بالطلاوة والسهولة وصدق التعبير ..

نفحات وجد ونضال ـ وما اكثر النفحات التي تعبق بها ارض ليبيا ـ القطر العزيز الذي حجب الحكم الايطالي الفاشي كل صلة بيننا وبين اخواننا الادباء والشعراء الذين كانوا على اتصال وثيق بالحركات الفكرية في العالم العربي بينما كنا نجهل الكثير من انتاج اخواننا في المغرب العربي ، وفي ليبيا بصورة خاصة ، والحق ان انتاجهم قيم ، وقد اخذت مطابعهم تقذف الكثير من الكتب في جميع فنون الادب والمعرفة ، وهي تتجاوب مع ما يصدر عن الاقطار العربية، يجدر ان لا تكون بمعزل عنها، وقد حملت معي ، في رحلتي الى ليبيا، الكثير من انتاج الادباء والشعراء والكثيرين من المفكرين وكتاب القصة ، واكثر هذا الانتاج له طابع ادبي متميز ، ارجو ان اتناوله بالدرس في الكتاب الذي ازمع ان اكتبه عن ليبيا التي تعيش اليوم حياة جديدة بعد ان عاشت سنوات مريرة تكافح وتناضل في سبيل

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

تليفون الادارة ٢٢٣٨١٩ — Tel : Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

حريتها وسيادتها ـ حياة تتسم بالبناء على ركائز متينة واسس وطيدة في شتى الميادين .

حلب — سامي الكيالي

•

ديوان طهمان بن عمرو الكلابي

شرح ابي سعيد السكري ـ تحقيق محمد جبار المعيبد ، ٩٦ صفحة ـ مطبعة الارشاد ببغداد (ساعدت وزارة التربية على نشره) ١٩٦٨

المعيبد ، من هذا النفر من الشباب العراقي العامل في حقل التحقيق في صمت ونكران ذات ، قدم لنا « ديوان عدي بن زيد » ثم غاب قليلا مشغولا بأمور علمية منها جمع شعر اللصوص ، ومن هؤلاء شاعر لم يتردد اسمه على دارسي الادب العربي المختصين فضلا عن العامة ـ هو طهمان ـ من الشعراء النجديين في العصر الاموي.

وقد بذل المعيبد جهدا واضحا في اخراج ديوان طهمان اخراجا علميا نافعا رجع فيه الى كل ما يجب الرجوع اليه من المصادر .

اذا قرأنا الديوان رأينا فيه فوائد لغوية واجتماعية وتاريخية ، وقد عكس جوانب من اخلاق اللصوص وصورا مما كان يشغل بالهم ويعتري نفوسهم ، لا يخلو بعضها من طرافة .

تقول ابنة الطائي ما لي لا ارى   بكفيك من مال يكاد يليق ..

وكان مما أصاب طهمان ان قطعت يده اليمنى ، فقال في ذلك شعرا :

يدي يا امير المؤمنين اعيذها   بحقويك ان تلقى بملقى يهينها

وضرب رجلا اهانه حتى قطعه وقطع يده فقال :

لقد سرني ماجرف السيف«هانئا»   وما لقيت من حد سيفي انامله

ومتركه بالبرتين مجدلا   تنوح عليه امه وحلائله

وفر الى اليمن ، فقال شعرا في « الحارثيات » :

.. بنات الملوك لا ينال مهورها   دنيء وان اغلا بهن واكثرا

و « قتل رجلا من غني » في غيرة عند نساء ، ثم رمى فلحق ب « العارض » ، « فكان فيه سنتين » (١) مضطرا على الاقامة متخفيا، فآلمه ذلك :

مللت ثواء باليمامة لا ارى   من الناس الا العبد يحدو السوانيا

واشرب ليلا ثم أصبح طاويا   تظل عتاق الطير حولي حوانيا

وليس لشعر طهمان فيما عدا ذلك اهمية تذكر ، لانك لا تجد في شعره ما يعلو المتوسط (٢) ، وطهمان في ذلك مثل اكثر الشعراء الذين لم يفرغوا لقول الشعر وممن يقولونه عابرا للاعراب عن امر يلم بهم .

ولا يحول هذا ـ بالطبع ـ دون الاهتمام بهم والعناية بشعرهم والافادة منه . وقد احسن المعيبد اذ بذل الجهد واحسن اذ نشر ديوان طهمان .

اما اهم الملاحظات التي يمكن ان تذكر هنا ، فهي :

١ ـ طبع ديوان طهمان في اوروبة اكثر من مرة ، وقد اعتمد المحقق طبعة وليم رايت ، وكنا نود لو اعتمد المخطوطة الاصل الموجودة في ليدن . وقد ود الناشر نفسه لو تهيأ له ذلك ، وسعى ، الا انه لم يستطع ـ في حدود طاقته ـ ان يحصل على صورة لها ـ نرجو ان تتهيأ له في فرصة اخرى .

٢ ـ شكل اسم الشاعر : ان الاسم غريب علينا ، ومن المحتمل جدا ان نسيء لفظ الطاء ، ولذا حسن ان تشكل او ان يشار الى شكلها . جاء في القاموس المحيط : « وطهمان كسلمان ويضم ... »

اما الضمة الواقعة فوق الميم من ابيه عمرو فلا يمكن ان تعزى الى المحقق بأي حال من الاحوال .

٣ ـ ان عددا لا بأس به من كلمات نص الديوان يقتضي ان يشكل من حروفه ما يحتمل وقوع الخطأ فيه .

٤ ـ وضع المحقق « تخريج القصائد » في آخر الكتاب ، ولو وضع تخريج كل قصيدة على رأسها ـ كما فعل في ديوان عدي ـ كان عمله انفع لنا .

٥ ـ ورد على ص (٧٧) ان التبريزي توفي سنة ٥١٢هـ ، ولا بد من ان يكون هذا من خطأ مطبعي ، لان الصحيح هو سنة ٥٠٢ والمحقق يعرف ذلك جيدا وقد ذكره كما يجب على ص ٧٦ .

الملاحظات ليست بذات بال الى جوار ما بذل المحقق من جهد وقرب من بعيد .

لقد يسر الديوان الى القارىء والباحث على شكل علمي ـ وليس هذا بالقليل .

اننا بانتظار الاثر الثالث من تحقيق المعيبد .

---

(١) لا يستحيل ان تكون سنين . (٢) وقد تلمح في شعره معنى قريبا من معنى ورد لدى معاصريه مثل توبة (ص ٢٢) ، وقيس لبنى (ص ٤٧) .

بغداد — علي جواد الطاهر

•

جفون تسحق الصور

رواية ـ تأليف الدكتور بديع حقي ـ ١٧٤ صفحة ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت

عندما يتحول الكاتب من شاعر الى قصاص فهو يمثل في الواقع ظاهرة « جديرة » بالدراسة ، ولكنني الآن لست في سبيلي الى هذا النوع من الدراسات ، الا انني مع ذلك لا استطيع ان انتزع من ذاكرتي صورة الشاعر بديع حقي وأنا أهم بالحديث عن بديع حقي القصاص.

كان « سحر » ديوانه الاول ، والاخير ، ومع ذلك فان هذا الكتاب الوحيد كان نموذجا متفردا في الشعر العربي الحديث والسوري بشكل خاص بما اشاع فيه من روح شابة جديدة تحاول ان تتمثل تيارات التعبير العصرية في اختيار اللغة الانيقة والتصوير الطريف. وقد اكون الان من الذين لا يحبون هذا النوع من الشعر المترف ، الا انه لا يسعني نسيان ذلك الاثر القديم الذي تركته في نفسي وانا بعد ما أزال قارئا ناشئا متلهفا ان في سوريا شعرا آخر غير شعر الجزالة والفحولة والمناسبات الكبرى . لقد كان الكتاب اسهاما لا نكران لاثره في اغناء الحركة الشعرية العربية المعاصرة .

ولكن الشاعر سكت فجاة ، فرمى قيثارة المغني كي يحمل قلم المترجم والقصاص ، منصرفا الى هوايته الجديدة انصرافا تاما ما يزال يحافظ عليه حتى الآن . فأيهما كان افضل ، الشاعر أم القصاص ؟.

انه سؤال لا يمكن الاجابة عليه اجابة نهائية ، فلقد قام الشاعر في زمنه بدور معين لا غنى عنه ، ويقوم الآن القصاص بدور جديد ، وهو في كلتا الحالتين يستسلم لطواعية مطلقة نابعة من هذا التحول الطبيعي الذي طرأ ويطرأ على كثير من الكتاب فلا يتشبثون بمهمة لم يعودوا قادرين عليها ، مؤمنين بمهمتهم الجديدة ايمانا خالصا ، معبرين في كل ذلك عن اخلاص لا هدف له الا الامانة مع النفس ، ومع الآخرين . ولقد قال لي بديع حقي ذات يوم في احدى محاوراتنا

الطويلة :

ـ لا أعرف كيف حدث ذلك . ولكنني اؤكد لك انه منذ سنوات لم تخامرني اية رغبة في نظم الشعر ، وان كتابة القصة ، اصبحت متعتي الجديدة التي لا اجدها في أي نوع آخر من الكتابات ..

انه تحول طبيعي اذن ، وادراك ذاتي لهذا التحول وتلك مزية حقا ، يحتاج لها الفنان : أن يعرف نفسه .

بدأ بديع حقي الشاعر ، والموظف الدبلوماسي العريق ، في كتابة القصة القصيرة اول الامر ، وقد جمع انتاجه الاول في مجموعته : « التراب الحزين » التي يعرفها الكثيرون وعلى الاخص الطلاب السوريون طوال سنوات ، اذ كان الكتاب من مقررات برامجهم المدرسية طوال الفترة القائمة بين عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٦٨ . ان بديع حقي قصاص معروف الآن اذن ، وقد كان التعرف اليه كما نرى طوال اربع سنوات عملا ارغاميا لا مفر منه ، الا ان « جفونه ... » الاخيرة تعطينا صورة جديدة كل الجدة عن الكاتب ، ومعرفة حميمة ابلغ من تلك التي يكتسبها الانسان في قاعات المدارس حيث تبدو الكتب المقررة كلها واجبا رسميا اكثر منها ارتباطا اختياريا ملذا .

انه لامر واقع ـ في رأيي على الاقل ـ أن بديع حقي بعد أصدار روايته تلك قد تجاوز نفسه ، واندفع في المضمار مسافة ليست بالقصيرة سواء أكان بالقياس لنفسه ام للانتاج العربي عامة في حقل الرواية . ولكن النقد ليس بالطبع اصدارا لاحكام عامة ، فهو تحليل وتفسير ونبش لدقائق الاشياء الحسن منها والرديء وهذا ما سوف احاول صنعه الآن .

تعتبر الرواية من الحجم الصغير اذ لا يتجاوز عدد صفحاتها المئة والاربع والسبعين صفحة على وجه الدقة . وتكمن نواتها في ذكرى قديمة اختزنتها ذاكرة الكاتب سنوات طويلة لرجل مريض مشلول كان جارا له يعرفه بائعا متجولا ثم انسانا مريضا مربوطا الى فراشه ، تطل يده النحيلة من النافذة ، ثم رجلا محطما محمولا على ظهر حمال تقوده زوجته الشرسة الى المحكمة الشرعية كي تتخلص منه بالتفريق . وقد كتبها في قصة قصيرة نشرها قبل عشرين عاما في مجلة « الاديب » تحت عنوان « في الوحل » ولكن يبدو أن هذه الذكرى كانت اعمق وابلغ اثرا من الشكل الذي ظهرت فيه ، فظلت تلح عليه حتى عاد اليها من جديد كي يصنع منها قصة طويلة . فهي اذن كما يقول الكاتب في تصديره ، منسولة من الواقع ، ولكنها محورة ، موشاة ، مستوعبة آثار كتاب آخرين قبل ان تستوي على عودها قصة كاملة . وجدير بالذكر ان انبه الى المدة الطويلة تلك التي استغرقتها القصة في ذاكرة الكاتب ، والى المدة التي استهلكتها في التنفيذ من بلودان الى الجزائر . ولقد شاءت الصدف ان تجمعني بالكاتب مرة اخرى في غير بلدنا دمشق فاجد نفسي مدرسا في الجزائر ، واجد بديع حقي من جديد معي غارقا في انجاز روايته بالرغم من متاعب عمله الدبلوماسي ، وهكذا أتيح لي ان اتعرف الى الرواية قبل نشرها في كتاب من خلال احاديث صاحبها عنها ، فاتمثل مصطفى في فراشه قعيدا يتمزق من العجز والقهر ، وصبرية صخابة كالوحش المفترس تمارس سيطرتها الكلية في قسوة بهيمية ، واتبين منذ اللحظات الاولى هذه الزاوية الطريفة الموحية التي انطلق منها الكاتب والتي تنبىء عن عمل ادبي ذي شان . ولم يخب املي بعد صدور الرواية وقراءتها ناجزة كاملة . لقد استطاع بديع حقي ان يفي بوعده .

يمكن تلخيص الموضوع في سطور قلائل ، ولكن ليس هذا هو المهم . ان طريقة العرض التي اختارها الكاتب هي التي تضفي على الموضوع طرافته الحقيقية . ثمة رجل مشلول في فراشه لا يستطيع النطق ، وليس غير جفونه المرتعشة ما يدل على نسمة الحياة في جسده الهامد ، وثمة زوجة قاسية تتبرم به وتسومه اصناف العذاب، وصبية حلوة هي ابنة المريض من زوجته الاولى التي تعرف اليها على طريق الزبداني عندما كان سائقا مفعما بالحيوية والامل ، ولكن هذه الزوجة سرعان ما تموت بعد الولادة وتتركه مفجوعا وحيدا ، فلا يلبث بعد سنوات ان يخضع للاغراء وحاجته لام جديدة لطفلته فيتزوج ، ومنذ تلك اللحظة تبدأ متاعبه الحقيقية اذ يكتشف روح الشر في زوجته الجديدة فيضربها ، ويصاب في حادثة اصطدام سيارته يفقد على اثرها قوى الحركة والنطق ويعيش تحت رحمة زوجته الطاغية حتى النهاية ، لولا أن الظروف تساعده آخر الامر على انقاذ ابنته من مؤامرة زوجته لتسليم الفتاة الصغيرة الى احد الطامعين ، وفي افساد احلامها ومشروعاتها الخاصة في زواج جديد مربح بعد طلاقها منه على اثر انتحار ابنه عبده الابله الذي ولدته منه تلك المرأة الشريرة .

ان الموضوع كما نرى غني ، ثر ، صالح ان يكون نواة قصة طويلة . فاذا تجاوزنا هذه المزية ماذا نجد ؟. وما هي المشكلة الحقيقية المطروحة ؟.

لقد بدأت متاعب الرجل بعد موت زوجته الاولى فمن كان المسؤول عن موتها ؟. لقد كان الموت بسبب النزف المتصل الذي ألم بالنفساء بعد الوضع ، ومن هنا تبدو احزان الرجل نابعة من حادثة طارئة ، ويمكن القول بهذا المعنى ان الزوجة لو لم تمت لما كانت هناك اذن مشكلة ، وبالتالي لما حدث ما حدث ولم يكن ثمة اذن قصة . ان المشكلة المطروحة كما يبدو لا تمتد جذورها في اعماق المجتمع كي تعكس تناقضا اجتماعيا تقع مسؤوليته على المجتمع نفسه ، فالرواية اذن تعالج مشكلة فردية وماساة خاصة ، وهذا هو السبب الذي يدفع القارىء في النهاية الى التساؤل : حسنا .. ماذا يريد الكاتب بعد كل هذا ؟. أهي مجرد محاولة لتقديم شريحة حية من جسد المجتمع الذي نعيش فيه دون ان يهدف الكاتب الى تحميلها اية فكرة اخرى معينة اعمق وابعد مدى ؟. اذا كان هذا هو هدفه فلقد استطاع الوصول اليه وهو في حد ذاته هدف جليل ليس بلوغه بالامر الهين ، الا انني مع ذلك لا ابرىء الرواية تماما من هذا النقص الذي لم يعد واردا في الادب الحديث ذلك ان الآثار الفنية الكبرى المعاصرة لا بد ان تطرح من قريب او من بعيد قضية ما اجتماعية ، او فلسفية انسانية الا ما تقدمه مدارس اللامعقول والتجريد والرواية الجديدة التي لا اعتقد ان بديع حقي ينتسب الى واحدة منها . انه اديب واقعي أولا وآخرا ، ولهذا السبب كنت أريد من روايته ان تقدم لنا الواقع بشكل يوحي بغاية اكثر عمقا من محاولة التصوير المجرد لمشكلة فردية خالصة : مشكلة رجل أرمل مشلول !.

ولكن كيف كانت طريقة العرض ؟. لعل اجمل ما قدمه بديع حقي في كتابه هو هذه التقنية المحكمة التي عرض من خلالها روايته ، فالقصة كلها معروضة عبر مخيلة الرجل المريض وفي المرئيات البسيطة التي يستطيع التقاطها من خلل جفونه المرتعشة . كانت اذن عملية استبطان تبدأ بمشهد صباح أليم جديد في حياة الرجل المقعد ، ولكنه صباح حاسم لانه اليوم الذي حمل فيه كمتاع مهمل على ظهر ولده الفتى الى المحكمة وتم فيه الطلاق .

نحن اذن في صميم الحاضر المفجع ، فالبيت سجن رهيب والصباح ايذان بمولد عذابات جديدة ، وطوال المقطع الاول ليس الا هذا العالم الداخلي للرجل المريض الذي يستقبل الفجر ، ويراقب النافذة والذباب ، واشعة الشمس ، والحبل الذي يشد الجرس، في اداء مفصل دقيق يضعنا وجها لوجه امام الماساة ، ثم تدخل الزوجة المسرح ، فيستيقظ القط متربصا ، وتكف الفارة عن حركتها الخفية ، وتستمر المرئيات الظاهر منها والدفين ، يحركها الكاتب من الداخل مازجا بين الوصف والسرد والمونولوج الداخلي ، حتى يكف الحاضر عن الحركة في الصفحة الثانية والثلاثين حيث يبدأ الماضي الجميل يعود في عملية تذكر محبوكة ترسم اللون الزاهي

المقابل للون الفاجع في اللوحة الاصلية حتى الصفحة التاسعة والخمسين اذ تتوقف الذكريات قليلا او تتكشف على الاصح فيصفحة نرى فيها ابنته زينب وقد أضحت صبية حلوة ، وابنه عبده فتى أبله في الرابعةعشرة من عمره هو عمر زواجه الثاني . ولكن الذكريات ما تلبث أن تكر من جديد تحمل تفاصيل مثيرة جديدة تعمق اللون الفاجع الذي يزداد سوادا حتى هروب زينب من البيت في الصفحة التاسعة بعد المئة . وهكذا يعود الحاضر الذي بدأت من عنده القصة اذ يحمل مصطفى المريض الى المحكمة ثم تبدأ الاستعدادات للفرح الجديد ، فنجد القصة هنا تتلاحق فيها الاحداث والمرئيات في خط متوتر حتى الصفحة الاخيرة حيث يختم الكاتب الرواية وقد فسد الحفل ، وانهارت الزوجة العاتية وبدأ الرجل المريض يتمتع لاول مرة في حياته المهزومة بلذة الانتصار بالرغممن جثة ابنه المدلاة الىجانبه .

لقد حدثنا الكاتب نفسه ـ في المقدمة ـ عن المؤثرات التي لعبت دورها في تكوينه كقصاص ، فهل ثمة حاجة للبحث عنها وقد كفانا هو نفسه مؤونة الكشف عنها كنقاد محللين . ان الكاتب يساعدنا ولكن الى حد . حدثنا عن تأثره بدوستويفسكي وغوغول وجيمس جويس وفولكنر ورواد الرواية الجديدة في فرنسا والحق انك لا تلمس في كل ما تقرأ تأثرا معينا منقطعا عن غيره ، فلقد استطاع الكاتب أن يتأثر وان يصهر كل هذه المؤثرات في بوتقته الخاصة حتى النهاية فظل عمله حتى النهاية يتمتع بتفرده واستقلاله .

ان اثر دوستويفسكي يظهر من خلال تصوير الشخصيات في اندفاعها الاهوج حتى الموت ، واثر غوغول في طابع الاضحاك الخفيف رسم بعض الشخصيات في قلب هذاالاتونالمستعر . اما تأثير الباقين فليس ضروريا فيه ان نعزو الحوار الداخلي الى جيمس جويس بعد أن صارت هذه الطريقة شائعة منذ سنوات طويلة وقبل ان يبدأ بديع حقي نفسه في كتابة القصة ، كما ان الصور الشعرية ليست بالضرورة اثرا من اثار فولكنر ، فهي في اعتقادي اثر من آثار الشاعر بديع حقي نفسه في بديع حقي القصاص . كما ان الالحاح على التفاصيل الدقيقة للاشياء ليس هو ما يميز الرواية التي تعتبر قصيرة بالنسبة للروايات العادية في الموجة الجديدة . ولكن هذا لا يمنع ان الكاتب قارىء نهم ، واسع الثقافة ، قادر ان يجمع في دخيلته رواسب كثيرة يحسن استخدامها في الوقت المناسب وهذا هو المطلوب .

ان الشيء الخاص الذي يميز طريقة العرض في هذه الرواية من غيرها من الروايات العربية هي عملية الاستبطان المستمرة في الالحاح على تقديم الاحداث والافكار والانطباعات كلها من خلال نفس الرجل القعيد ، وانها لعملية شاقة اذ يبدو في بعض الاحيان ان القصة تصبح غامضة او ناقصة حين يحتاج الامرُ الى الانطلاق خارج هذه النفس ، وحين نشعر ان الاشياء الاخرى لم تنل نصيبها الكافي من الوصف والتحليل . ولكن الكاتب حافظ على جوه ، ومن خلال هذا الجو المكبوت المحدود استطاع ان يرسم كل الاجواء الاخرى عبر حركة او نظرة او كلمة فالناس يتحركون حول المريض ، والاصوات تتصاعد ، والجلبة تزداد ، واذنه تلتقط كل هذه الاشياء وتنقلها بعد عملية اختيار دقيقة محسوبة ، وتبدو هذه المهارة اكثر ما تبدو في المشاهد الاخيرة اذ يزدحم البيت بالناس ، وتكثر الاصوات ، وتتلاحق الاحداث ، ولكننا مع ذلك ومن دون ان نخرج من غرفة المريض او بالاحرى من داخل المريض نفسه ، نفهم كل ما يجري ، ويزداد تمتعنا بما يجري لانه مشفوع بطابع الفضول، والتشوف، والاحساس بالخطر، مقترنا بهذا الاحساس الثابت بالعجز عن التدخل لتغيير مجرى الامور الكريهة . ان التقنية التي مارسها الكاتب ، وطبقها بصرامة ومهارة على أسلوبه في العرض يمنح الرواية درجة عالية من النضجفيما يسمى بالاصول او « التكنيك » ، ولن تذهب من ذهني ابدا هذه الصور المتلاحقة التي كانت تعبر في مرئيات مصطفى المريض وهو يلاحق العرس كشريط مثير يقدم لنا الصور من خلال نافذة ثابتة ، فحمدي التاجر الملقب « بالزلقطة » مثلا نراه يحمل السجادة التي اهدتها اول الامر ويهبط بها الدرج في استعجال بعد ان تأكد من فساد خطته . أنه يمثل اذن التاجر الذي لا تفارقه روحه الانتهازية في اشد اللحظات حرجا . ونرى صبرية في وصيد الباب تكاد تسد بجسمها المترهل منافذه وقد تصدى لنا المثلث المنفرج بين خصرها وذراعها المتكئة على ردفها فنفهم ان ممكنات جديدة من الشر موشكة على الاندلاع . هذا ما يحصل في الخارج ، اما في داخل الغرفة فان الامر يختلف ، فالصور لا تمر سريعة مختطفة ذلك ان الغرفة هي عالم الرجل المريض الوحيد الذي يمارس استجلاءه كل يوم ، ولهذا السبب تبدو صورة الذبابة وهي تحك قدميها صورة طويلة مفصلة جديرة بالانتباه تعكس روح السأم القاتل الذي يعذب الرجل وهو يرى ان لا سلوى له الا في مراقبة الذباب الوقح الملح .

الا ان الكاتب خرج مع ذلك على هذه التقنية المقصودة في الصفحة السادسة والتسعين من الكتاب حين لجأت زينب اليه هاربة من الطابق العلوي حيث كان حمدي « الزلقطة » يطاردها بشهواته فيدخل حمدي الغرفة وراءها وهو ما يزال يتأكل غلمة واشتهاء . عند هذا المقطع يحاول الكاتب ان يقص علينا ماذا جرى فوق بعد ان اكتفى قبل قليل بذكر ما اوحي للرجل المريض من خلال مسموعاته وتخيلاته، وكان هذا كافيا اذ ليس من المهم ان نعرف تفاصيل ما حدث ولكن الكاتب يضع هذه العبارة فجاة :

« كانت نظرته المخذولة تقص ما جرى له مع النعجة النافرة الهاربة » :

ثم يضع نقطتين ، الواحدة فوق الاخرى كما نصنع حين نريد المزيد من التوضيح فيقص كيف مزق الرجل ثوب الفتاة ، وكيف نفر نهدها وكيف ثنى بقبضتيه يديها و.. و.. كيف استطاعت في النهاية ان تتلخص بعد صرخة مدوية ، فيخاف الوحش ، ويتنحى، فتنتهز هي الفرصة كي تعضه في ساعده وبين هو مشغول بجس مكان الالم تخف هاربة هابطة الدرج الى غرفة ابيها المريض ...

لقد ناقشت الكاتب شخصيا حول هذا المقطع ، وقد دافع عن نفسه وقتها انه لقي صعوبة حقيقية في طريقة عرضه هنا ، وانه احتال على ذلك اخيرا في قوله ان نظرة الرجل المعتدي المخذولة هي التي روت تفاصيل ما حدثَ . ولكني مع ذلك لا اجد هذه الصفحة منسجمة مع باقي اجزاء الرواية حيث لا يوجد تفصيل واحد خارج على الامكانات التي يقدر عليها الرجل العاجز . ان النظرة المخذولة قد توحي بتفاصيل كثيرة ، هذا صحيح . ولكنها لا يمكن ان تقدم تفاصيل الواقع ذاته ، بل تفاصيل واقع محتمل ، ولقد كان ممكنا عرض المقطع عن طريق التخيل مستخدمين عبارات معينة مثل : « لا بد انه مزق ثوبها .. » او « ربما انها عضته .. » ويمكن بكل سهولة حذف المقطع كله فلا يختل السياق ، ولا ينقص الرواية حدث اساسي ما دام المهد الرئيسي الذي تستند عليه هو شخصيا الرجل المريض وما يدور في اعماقه وما يعلق من المرئيات في بصره . ومهما يكن من امر فان البناء القصصي يظل متماسكا متينا لا تنقص من قيمته هذه الصفحة لانها كانت وحيدة منقطعة .

وخلال البناء كله ينساب الحوار الداخلي انسيابا ماهرا كي يشكل مع السرد العادي مزيجا متوازنا متساندا يضفي على الحدث القا خاصا يزيده وضوحا وعمقا ، ويمنحه طاقة اكبر على ترسيخ جذور التعاطف الضروري بين القارىء وبين البطل المغلوب على امره . الا ان الشيء الذي لم اهضمه هو طبع الحوار الداخلي بالحرف الاسود مما جعله أشبه ما يكون بمقاطع تعليمية ينبه بها الكاتب قارئه الى نوع الكتابة تنبيها مكشوفا يقطع الجريان الطبيعي لمتعة القراءة كي نتذكر اننا امام درس مقصود . لقد قال لي بديع حقي في هذا الصدد انه وجد هذه الطريقة افضل في تنبيه القارىء العادي ، وان بعض الكتاب الغربيين الكبار يلجؤون اليها مثل فولكنر الذي يطبع حواره الداخلي بحروف « ايتاليك » متميزة . الا انني اعتقد ان تعلم

القارىء العادي يكون في دفعه الى الاكتشاف بنفسه ، ولا اعتقد ان القراء العاديين عجزوا عن فهم الروايات الكثيرة الموضوعة والمترجمة التي كان يقدمها اصحابها بحروف واحدة متشابهة في طوفان الروايات الصادرة .

ولعل ابرز ما يميز تقنية الرواية هي قدرة الكاتب على رسم شخصياته . وبما ان القصة تعرض كلها من خلال انسان واحد فهناك اذن شخصية رئيسية واحدة هي شخصية الرجل المريض ، ويبقى الآخرون كلهم يدورون في فلكه كشخصيات مساعدة ثانوية تتدرج في اهميتها حسب قربها او بعدها عن الرجل المريض ، فاذا اخذنا بهذا السلم فان زوجته الثانية الطاغية صبرية تأتي في الدرجة الثانية من الاهمية ، يليها الابن الابله عبده ، والابنة الحلوة زينب ، ثم تتلاحق الشخصيات الاخرى على درجة واحدة مثل الخاطبة ام شحادة ، وحمدي « الزلقطة » التاجر المتصابي وابو حسني خطيب صبرية ثم بقية المدعوين الى الحفل والمحامي في المحكمة الشرعية وطيف الزوجة الراحلة الخ .. ان الرواية كما نرى حافلة بالبشر كما هي حافلة بالاحداث ، وكلهم يتكافلون في لوحة واحدة تمثل العالم السفلي من حياة دمشق . وقد استمان الكاتب في رسم الشخصية الرئيسية بكل الوسائل الممكنة من تحليل وتمثيل وحوار داخلي ولكن المادة الرئيسية التي نحت منها شخصيته كانت هذا الرسم الدقيق لحركات الشخص العاجز وتصوره للاشياء التي تحيط به ، وقلما ترك الكاتب لنفسه الحرية في ان ينبه على عاطفة معينة باسمها ، وانما هو الذباب يطن حينا ، والفارة تقرض حينا اخر ، والقطة تثب في وقت والاطياف تتوضح وتغيم في وقت ، والذكريات تمثل وتغيب والدمعة المعصية تنحدر بملحها الرطب حتى زاوية الفم وحبل الجرس يطوح كحبل المشنقة . وفي كل رسم من هذه الرسوم تتألق عاطفة خاصة كالسأم، والقهر ، والغضب ، والحنين ، والالم الجسدي ، والحقد ... وكلها مشاعر لا يسميها الكاتب باسمها ولا يتدخل في ابرازها الا بقدر ما تسمح له الصورة الخارجية التي يراها ، ويريد للقارىء ان يراها معه . ومن هنا يأتي الحوار الداخلي رديفا اساسيا لتوضيح معالم الشخصية الرئيسية عندما يعجز التصوير وحده عن منح الصورة حقها من النبض العميق الذي لا يسمع بالاذن المجردة .

ولكن الشخصيات الاخرى ليس لها حوارها الداخلي ، وهذا امر طبيعي لانها شخصيات مساعدة كما قلنا ، ولهذا السبب اقتصر الكاتب في عرضها على ما تسمح به جفون المريض المرتعشة ان ترى من خلال رفيفها الدائب القلق . ولو فعل غير ذلك لخرج على الامانة الفنية التي تقتضيها الخطة الموضوعة للكتاب ، فاذا لمسنا شراسة صبرية وطمعها ، ومكر ام شحادة ، ونهم حمدي « الزلقطة » وغباوة ابي حسني وبلاهة عبده ، وطهارة زينب ، فاننا لم نتوصل الى ذلك الا من خلال ما رآه المريض او سمعه ، وهذه قيود ضيقة التزمها الكاتب حتى النهاية ونجح بها مرتين : المرة الاولى انسجاما مع طبيعة التقنية المختارة لطريقة العرض الاساسية ، والمرة الثانية انسجاما مع الواقع في عرضه صورا حية لشخصيات تعيش على الورق كما تعيش على الحياة بالرغم من الحدود الضيقة والكوات الصغيرة التي سمح لنفسه ولنا ان نطل من خلالها على هذا العالم السفلي الصغير الصاخب .

واذا كان ثمة كلمة لي حول اسلوب بديع حقي فانا من المعجبين بتمكنه من اللغة وقدرته على الاداء السليم في رشاقة تنساب مطواعة كالساقية الرقراقة . انها لغة نقية مصفاة يندر ان نجد لها مثيلا في اساليب القصاصين العرب المعاصرين ولكي اضرب مثلا على ذلك فان في امكاني ان اختار لا على التعيين مقطعا ما من اية صفحة كي يكون المثل شاهدا صحيحا وها انذا اصنع فلنقرأ :

« وكان يمثل في وهمه الحين بعد الحين ان الصمت استحال الى كسرة خبز يابسة لا تني تقرضها هذه الفارة الدائبة المتوارية »

ولكن براعة الكاتب اكثر ما تبدو حين يصف هذه الحركات الدقيقة التي تميز شعورا دفينا خاصا فاذا هو شاعر يستعين بالصورة الى جانب الكلمة الصافية فيصبح المقطع اشبه مايكون بصورةشعريةشفافة.

« وافترقت الاهداب قليلا قليلا ، متثائبة ، مبتعدة ، وانسربت من ثناياها نظرته كانها خفاش نزق يشق بجسمه اللدن اهاب الظلمة ، وهفت الى نافذة جاثمة في اعلى الجدار القائم امامه وحطت على فجوة في زجاج النافذة الاغبر الوسخ المكسور ، وبدت له رقعة مستطيلة من السماء وجنة سوداء تناهبتها شامات بيض متلألئة » .

ثمة تشبيهان يعبران مخيلتنا في هذا المقطع هما : « الخفاش النزق الذي يشق اهاب الظلمة » و « الوجنة السوداء التي تناهبتها شامات بيض متلألئة » والتشبيهان على طرافتهما غريبان اشبه بصور الرمزيين منه بالصور التي تمر حقا في مخيلة رجل مريض كان يعمل سائقا على طريق الزبداني ، ان بديع حقي الشاعر هو الذي يتحدث هنا اكثر من بديع حقي القصاص ولعل هذا هو السبب مضافة اليه الكلمات الانيقة الكثيرة الاخرى التي يستخدمها الكاتب ما يجعل لغة بديع حقي أسلوبا شاعريا اكثر منه اسلوبا قصصيا ، ذلك ان لغة القصة في اعتقادي تختلف عن لغة الشعر ولا تحتاج الى هذه الاناقة البالغة لانها تصرف ذهن القارىء عن الحادثة الجارية ، او الشعور الطارىء الى مراقبة اللغة والالفاظ ، كما يصنع الزجاج المحجر او المزخرف حين نراقب من خلاله الاشياء . ان القصة تحتاج الى لغة سليمة وبسيطة في آن واحد ، والالحاح مثلا على هذه الصيغة للمبالغة التي تتكرر كثيرا يضفي على الاسلوب طابع تكلف لا ضرورة له . ان مثل : « لصيق » او وفعل «زمق» وغيرهما من الصفات والافعال بديع حقي بما أوتيه من مقدرة وثروة لغوية قادر على ادراك هذه البساطة بكل يسر ما دام مفتاح البيان في يده . ان المعيار الصحيح للاسلوب القصصي يكمن في هذا الاسلوب قادرا على ان يذهلنا عن نفسه فيشف عما يريده الكاتب دون ان يلفت النظر اليه . يجب ان ننسى الاسلوب ونحن نمارس القراءة ولا نتذكر الا ما يحدث امامنا . ومن المؤكد ان القارىء لا ينقطع عن القصة نفسها كي يتذكر الاسلوب ويراقبه الا في حالتين ، اما لان لغة الاسلوب كانت مبتذلة ركيكة ، واما لانها كانت انيقة الى حد المبالغة ، فالركاكة تخطف الانتباه مثل التأنق المبالغ فيه . ولقد قيل مرة في تعريف الرجل الانيق في ملبسه : انه الرجل الذي لا يلفت الانظار الى ثيابه بشدة . وهذا تعريف موفق حقا لا ينطبق على الاناقة الصحيحة في اللباس فحسب بل على الاسلوب القصصي ذاته ، وان نظرة سريعة الى كتابات اشهر القصاصين في العالم تعكس لنا بجلاء هذه المزية في التعبير السليم البسيط المباشر دونما تنميق ولا تكلف . على انني بعد كل ما قلته أظل مؤثرا لهذا الاسلوب اذا كان في الامر مفاضلة بين الاساليب التي تقرؤها لكثيرين من كتاب اليوم الذين غلبت عليهم الركاكة والابتذال . ان في اسلوب بديع حقي مزية اساسية هي انه يحمل نفسا اصيلا من انفاس البيان العربي السليم الذي كاد يضيع في ركام لغة الريبورتاجات الخفيفة الركيكة التي غلبت حتى على لغة الادباء في ايامنا الاخيرة .

وبعد فثمة سؤال اساسي طرحته على نفسي بعد ان فرغت من قراءة الرواية : لماذا كان يهيمن على القصة هذا الجو القدري المطلق ؟ لقد بدا الرجل مهزوما منذ البداية ، فهو مفلوج عاجز ، والمراة قوية قهارة ، فاذا لم تستطع هذه المراة في النهاية ان تحقق جميع مآربها فان دور الرجل المشلول في كل ذلك كان شبه معدوم ، ومن هنا كان يبدو ان كل شيء متوقع منذ البداية حتى النهاية الا ما تجود به الصدفة الحسنة . ثمة في كل عمل قصصي اومسرحي قوتان متناقضتان تجر كل منهما اقدار الناس في اتجاه مضاد ، ومن خلال هذا التناقض يبرز عادة ما يسمى بالعقدة او الصراع ، وهكذا يشحن

الكاتب روايته او مسرحيته بالتوتر المنشود الذي يجعل عمله الفني معركة حافلة بامكانات متنوعة متباينة من حيث التوقع والتنبؤ . وبقدر ما تكون هاتان القوتان متماثلتين في القدرة يكون الصراع بينهما اشد واعمق ، ولكن المعركة هنا تدور بين رجل عاجز كل العجز ، وبين امرأة قادرة كل القدرة فما هي امكانات التوقع التي تركها المؤلف للقارىء ؟. هل يمكن لهذا الرجل أن يتغلب وهو في فراشه على هذه المرأة الطاغية ؟. لقد كان واضحا طوال الرواية انه انتصار غير ممكن ، ولهذا السبب هيمن جو الاستسلام القدري ، واذا كان ثمة تحول ما قد طرأ لصالح الرجل ضد امرأته فقد تم بمعونة قوة خارجة على ارادته لا دخل له فيها . لقد كان القدر هو الذي تدخل منذ البداية، والقدر نفسه هو الذي تدخل في النهاية وانتصر ، اما الناس فقد كانوا أشبه بالدمى العاجزة طوال المعركة الغامضة سواء أكانوا مرضى أم أصحاء .

ويبدو ان الكاتب احس بصعوبة الامر ، وان خلق هذا الصراع المنشود في العمل الروائي لم يغرب عن باله ولكن طبيعة الموقف الصعب الذي القي فيه بطله كرجل مريض عاجز دفعته الى الاستنجاد في النهاية بالقدر . ومع ذلك فقد استطاع الكاتب ان يدفع بطله الى التدخل في الاحداث كي يعبر بشكل ما عن روح المقاومة بشكل عملي لدى الرجل المريض بدلا من الاكتفاء بلغة الشكوى ، والنقمة الداخلية، وذلك حين دس يده اليمنى في وسادته واخرج عشر ليرات وضعها في يد ابنته المهددة بعرضها موحيا لها ولو بالاشارة ان تنجو بنفسها هاربة بعيدا عن الفخ المنصوب لها في بيته . لقد استطاع الكاتب اذن ان يحتال بمهارة على الموقف الصعب في اشراك الرجل في المعركة الناشبة حتى يكون له دوره في القضاء على بعض مآرب زوجته القذرة . الا ان الخيط يخرج من يده بعد ذلك حتى ختام الرواية محتفظا بدور المتفرج على معركة لا يستطيع ان يسهم فيها بحركة واحدة . وهذا ما دفعني في النهاية الى ان اطرح على نفسي هذا السؤال : ألم يكن ممكنا بالنسبة للكاتب ان يشرك الرجل مرة اخرى في المعركة ولو بالاشارة الموحية ؟. ألم يكن هذا العمل ابعث على شد خيط الصراع المنشود في توتر حاشد بالتوقع واللهفة . لقد كاد الكاتب يصنع هذا حين اجرى في سريرة الرجل امنية عجيبة ولكنها معقولة ، وهي ان يموت كي يقضي بموته على احلام امرأته ويحول عرسها الى مأتم . لقد خيل لي في تلك اللحظة ان الرجل سيمضي بفكرته هذه الى النهاية وان يفكر بالموت او بالتظاهر بالموت على الاقل، وبدلا من ان ينتحر الابن يوجه الاب الانظار اليه في محاولة مماثلة . الا ان الكاتب دفع عنه فكرة الانتحار بعيدا حين قال على لسان بطله : « لا ، لا يا ربي ، لا اريد ان اموت منتحرا مثله فاذهب الى النار.. رباه ارحمه انه مسكين ، انه غبي لا يدرك ان عمله الاحمق محرم ...» فتغلبت بهذه الجملة روح التقوى والورع والاعتدال على روح المقاومة والعناد والغضب الضرورية لخلق جو التوتر والتوقع المضاد ، فابتعد بطل القصة بهذا الشكل من جديد عن محاولة التدخل المباشر في الصراع الدائر امامه. ولكن الرواية لا تخلو مع ذلك من الاثارة وبخاصة في فصولها الاخيرة حين تتعاقب الاحداث وتحتدم المعركة ، ويتدخل القدر محطما كل شيء ، وتنتهي القصة عند الحد الذي يقف عنده القارىء كي يتساءل : أليست الحياة حقا عبثا في عبث ؟. ترى .. أهذا ما كان يريد ان يصل اليه الكاتب ؟!.

ان رواية « جفون تسحق الصور » من الروايات التي تدفع الى التأمل ، والتفكير ، والمناقشة لانها عمل فني يأخذ مكانه البارز في تاريخ الادب المعاصر . ومهما كان باب النقاش مفتوحا ، فان انفتاحه لاكبر دليل على حيوية العمل المكتوب والمذاع بين الناس ، والذي صار اولا وآخرا ملك التاريخ الذي سيحكم له او عليه ، ولكنه في اعتقادي سيظل حكما فيه كثير من التقدير والاعجاب .

الجزائر — شوقي بغدادي